بسم الله الرحمن الرحيم

# ٢٠ - سورة طه

وهى مكية . وقيل : إلّا قوله تعالى[١] ( فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ) الآية . وقوله[٢] ( وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ) الآية ، وآياتها مائة وخمس وثلاثون .

(١) [ ٢٠ / طه / ١٣٠ ] . (٢) [ ٢٠ / طه / ١٣١ ] .



obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] ( طه )

[٢] ( مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ )

[٣] ( إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ )

« طه » قدمنا أن الحق فى هـذه الحروف التى افتتحت بها سورها ، أنها أسماء لها . وفيه إشارة إلى أنها مؤلفة منها . ومع ذلك ففى عجزهم عن محاكاتها أبلغ آية على صدقها . ونبه الإمام ابن القيم رحمه الله على نكتة أخرى فى ( الكافية الشافية ) بقوله :

وانظر إلى السور التى افتتحت بأحـ ـرفها ترى سرًّا عظيم الشان
لم يأت قط بسورة إلا أتى فى إثرها خبر عن القرآن
إذ كان إخباراً به عنها . وفى هـذا الشفاء لطالب الإيمان
ويدل أن كلامه هو نفسها لا غيرها ، والحق ذو تبيان
فانظر إلى مبدا الكتاب وبعدها الـ أعراف ثم كذا إلى لقمان
مع تلوها أيضاً ومع حمَ مع يسَ وافهم مقتضى الفرقان

« مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ » أى لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا و ( الشقاء ) فى معنى التعب . ومنه المثل : أشقى من رائض مهر . وقوله تعالى : « إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ » أى تذكيراً له . أى ( مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ ) لتتعب بتبليغه ، ولكن تذكرة لمن فى قلبه خشية ورقة يتأثر بالإنذار . والقصد أنه ماعليك إلا أن تبلغ وتذكر ، ولم يكتب عليك أن يؤمنوا لامحالة . وقد جرت السنة الإلهية

فى خطاب الرسول فى مواضع من التنزيل ، أن ينهاه عن الحزن عليهم وضيق الصدر بهم، كقوله تعالى[١] : ( فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ) ( فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ )[٢] (وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ)[٣] وهذه الآية من هذا الباب أيضاً . وفى ذلك كله من تكريم الرسول صلوات الله عليه ، وحسن العناية به والرأفة، ما لا يخفى . ثم أشار إلى تضخيم شأن هذا المنزل الكريم ، لنسبته إلى المتفرد بصفاته وأفعاله ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤] ( تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى )

[٥] ( ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ )

« تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ » قرئ بالرفع على المدح. أى هو الرحمن . وبالجر على أنه صفة للموصول. وقوله « عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ » أى علا وارتفع . قاله ابن جرير[٤] . وقد ذهب الخلف إلى جعل ذلك مجازاً عن الملك والسلطان . كقولهم (استوى فلان على سرير الملك) وإن لم يقعد على السرير أصلًا .

وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً .

قال ابن كثير: والمسلك الأسلم فى ذلك طريقة السلف ، من إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة ، من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل .

وقد أسلفنا ما حققته أئمة الفلك الحديث ؛ من أن العرش جرم حقيقىّ موجود . وأنه مركز العوالم كلها . أى مركز الجذب والتدبير والتأثير والنظام .

---

(١) [ ٧ / الأعراف / ٢ ] . (٢) [ ١٨ / الكهف / ٦ ] .

(٣) [ ٣ / آل عمران / ١٧٦ ] . (٤) انظر الصفحة رقم ١٣٨ من الجزء السادس عشر من تفسير الطبرىّ ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] ( لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ )

« لَهُۥ مَافِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَافِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ » .

بيان لشمول قهره وملكته للكل . أى كلها تحت ملكته وقهره وسلطنته وتأثيره . لاتوجد ولا تتحرك ولا تسكن ولا تتغير ولا تثبت إلا بأمره .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] ( وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى )

« وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى » .

بيان لكمال لطفه. أى علمه نافذ فى الكل . يعلم ظواهرها وبواطنها والسر وسر السر. فكذلك إن تجهر وإن تخفت، فيعلمه بجهر وخفت .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] ( ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ )

« ٱللَّهُ » أى ذلك المُنزل الموصوف بهذه الصفات هو الله « لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » أى الفضلى ، لدلالتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التى هى النهاية فى الحسن . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] ( وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ )

[١٠] ( إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى )

« وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ » من عطف القصة أو استئناف . والقصد تقرير أمر

التوحيد الذى انتهى إليه الآية قبله ، ببيان أنه دعوى كل نبيّ لاسيما أشهرهم نبأ، وهو موسى عليه السلام. فقد خوطب بقوله تعالى[١] (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا) وبه ختم تعالى نبأه فى هذه السورة بقوله[٢] (إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) أو تقرير لسعة علمه المبين فى قوله تعالى[٣] (وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ) الخ لقوله بعدُ (وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً)[٤] أو لهما معا. أو لحمله، صلوات الله عليه ، على التأسى بموسى فى الصبر والثبات. لكونه ابتلى بأعظم من هذا فصبر، وكانت العاقبة له. وقد أشير فى طليعة نبأ موسى عليه السلام، إلى كيفية ابتداء الوحى إليه ، وتكليمه تعالى إياه . وذلك بعد أن قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم. وسار بأهله قاصداً بلاد مصر، بعد ما طالت غيبته عنها ومعه زوجته. فأضلّ الطريق. وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال فى برد وشتاء. وبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً ، كما قصه تعالى بقوله « إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا » أى أبصرتها إبصاراً بيّناً لا شبهة فيه « لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ » أى بشعلة مقتبسةٍ تصطلون بها : « أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى » أى هاديا يدلنى على الطريق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ)

[١٢] (إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ، إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

« فَلَمَّآ أَتَىٰهَا » أى النار « نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » أى فيجب فيه رعاية الأدب ، بتعظيمه واحترامه لتجلى الحق فيه، كما يراعى أدب القيام عند الملوك ( وطُوًى ) اسم للوادى .

---

(١) [ ٢٠ / طه / ١٤ ] .
(٢) [ ٢٠ / طه / ٩٨ ] .
(٣) [ ٢٠ / طه / ٧ ] .
(٤) [ ٢٠ / طه / ٩٨ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] ( وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ )

[١٤] ( إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ )

[١٥] ( إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ )

« وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » أى اصطفيتك للنبوة « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ » أى للذى يوحى . أو للوحى . ثم بينه بقوله « إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى » أى خصنى بالعبادة « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ » أى لتذكرنى فيها بقلبك ولسانك وسائر جوارحك ، بأن تجعل حركاتها دالة على ما فى القلب واللسان . قال أبو السعود : خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالأمر بالعبادة ، لفضلها وإنافتها على سائر العبادات ، بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره . وذلك قوله تعالى ( لِذِكْرِىٓ ) أى لتذكرنى . فإن ذكرى كما ينبغى لا يتحقق إلا فى ضمن العبادة والصلاة . أو لتذكرنى فيها لاشتمالها على الأذكار . أو لذكرى خاصة لاتشوبه بذكر غيرى . أو لإخلاص ذكرى وابتغاء وجهى . لاترائى بها ، ولا تقصد بها غرضاً آخر . أو لتكون ذاكراً لى ، غير ناس . انتهى .

ثم أشار إلى وجوب إفراده بالعبادة وإقامة الصلاة لذكره ، بقوله « إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ » أى واقعة لا محالة « أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ » أى بسعيها عن اختيار منها . واللام متعلقة بـ ( آتية ) . ولما كان خفاء الساعة من اليقينيات وفى ( كاد ) معنى القرب من ذلك ، لعدم وضعها للجزم بالفعل ، تأولوا الآية على وجوه :

أحدها ـ أن ( كَادَ ) منه تعالى واجب . والمعنى أنا أخفيها عن الخلق . كقوله[1] ( عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيباً ) أى هو قريب .

ثانيها ـ قال أبو مسلم : ( أَكَادُ ) بمعنى أريد كقوله[2] : ( كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ )

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٥١ ] . (٢) [ ١٢ / يوسف / ٧٦ ] .

ومن أمثالهم المتداولة ( لا أفعل ذلك ولا أكاد ) أى ولا أريد أن أفعله . قال الشهاب : تفسير ( أَكَادُ ) بـ ( أريد ) هو أحد معانيها . كما نقله ابن جنى فى ( المحتسب ) عن الأخفش . واستدلوا عليه بقوله[1] .

كادتْ وكدتُ وتلك خيرُ إرادةٍ لو عاد من لَهْوِ الصَّبابةِ مَا مَضَى

بمعنى أرادت . لقوله ( تلك خير إرادة ).

ثالثها ـ أن ( أَكَادُ ) صلة فى الكلام . قال زيد الخيل[2] .

سريعٌ إلى الهيجاء شاكٍ سلاحُهُ فما إنْ يَكَادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ

رابعها ـ أن المعنى أكاد أخفيها فلا أذكرها إجمالا ولا أقول هى آتية . وذلك لفرط إرادته تعالى إخفاءها . إلا أن فى إجمال ذكرها حكمة، وهى اللطف بالمؤمنين، لحثهم على الأعمال الصالحة، وقطع أعذار غيرهم حتى لا يعتذروا بعدم العلم . وثمة وجوه أخر لا تخلو من تكلف، وإن اتسع اللفظ لها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] ( فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ )

« فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا » أى عن تصديق الساعة « مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ » أى ما تهواه نفسه من الشهوات وترك النظر والاستدلال . « فَتَرْدَىٰ » أى فتهلك .

قال الزمخشرى : يعنى أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجم الغفير . إذ لا شىء أطم على الكفرة، ولا هم أشد له نكيراً من البعث. فلا يهولنك وفور دهمائهم، ولا عظم سوادهم . ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك. واعلم أنهم، وإن كثروا تلك الكثرة، فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى

---

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٥ من المجلد الثالث (طبعة بيروت) ولم يسمّ قائله . وفيه ( لو كان ) عوضا عن (لو عاد) .

(٢) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٣٨٤ من المجلد الثالث ( طبعة بيروت ) .

واتباعه . لا البرهان وتدابره . وفى هذا حث عظيم على العمل بالدليل ، وزجر بليغ عن التقليد ، وإنذار بأن الهلاك والردى مع التقليد وأهله . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ )

[١٨] ( قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ )

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ » شروع فيما سيؤتيه تعالى من البرهان الباهر . وفى الاستفهام إيقاظ له وتنبيه على ما سيبدو له من عجائب الصنع « قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا » أى أعتمد عليها إذا أعييت أو وقفتُ على رأس القطيع وعند الطفرة « وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى » أى أخبط بها الورق وأسقطه عليها لتأكله « وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ » أى حاجات أخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] ( قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ )

[٢٠] ( فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ )

[٢١] ( قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ، سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ )

« قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ » أى هيئتها الأولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل . أى ليس القصد تخويفك ، بل إظهار ما فيها من استعداد قبول الحياة ، ومشاهدة معجزة وبرهان لك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] ( وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ )

[٢٣] ( لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى )

«وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ» أى إبطك «تَخْرُجْ بَيْضَآءَ» أى نيِّرة «مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ» أى قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفر عنه . واعتمد الزمخشرىّ ؛ أن قوله تعالى ( مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ) كناية عن البرص . كما كنى عن العورة بالسوأة ، قال : والبرص أبغض شىء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة . وأسماعهم لاسمه مجّاجة . فكان جديراً بأن يكنى عنه . ولا ترى أحسن ولا ألطف ولا أحرّ للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه . انتهى .

« ءَايَةً أُخْرَىٰ » أى معجزة أخرى غير العصا « لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى » متعلق بمضمر ينساق إليه النظم الكريم . أى أريناك ما أريناك الآن ، مع أن حقهما أن يظهرا بعد التحدى والمناظرة ، لنريك أولا بعض آياتنا الكبرى ، فيقوى قلبك على مناظرة الطغاة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٤] ( ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ )

« ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » تخلص إلى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة . فُصِل عما قبله من الأوامر إيذاناً بأصالته . أى اذهب إليه بما رأيته من الآيات الكبرى ، وادعه إلى عبادتى وحذره نقمتى . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ طَغَىٰ » أى جاوز الحد فى التكبّر والعتوّ ، حتى تجاسر على العظيمة التى هى دعوى الربوبية . فلابد من تنبيهه على طغيانه بالدلائل العقلية ، التى صدقتها المعجزات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] ( قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى )

[٢٦] ( وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى )

[٢٧] ( وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى )

[٢٨] ( يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى )

« قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى » إنما سأل ذلك ، لما كان يتخوفه من آل فرعون فى القتيل . ولما بعث به من صدع جبار عنيد ، أطغى الملوك وأبلغهم تمرداً وكفراً ، مما يحوج إلى عناية ربانية . وسأل أن يُمَدّ بمنطق فصيح ، لما فى لسانه من عقدة كانت تمنعه من كثير من الكلام كما قال[1] ( وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا ) وقول فرعون[2] ( وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ) ثم سأل عليه السلام ربه أن يعينه بأخيه هرون ، ليكون له رِدْءًا ، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] ( وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى )

[٣٠] ( هَـٰرُونَ أَخِى )

[٣١] ( ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى )

« وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى » أى قوِّ به ظهرى .

---

(١) [ ٢٨ / القصص / ٣٤ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٥٢ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] ( وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِى )

[٣٣] ( كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا )

[٣٤] ( وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا )

[٣٥] ( إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا )

« وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا » أى كى نتعاون على تسبيحك وذكرك . لأن التعاون ـ لأنه مهيج الرغبات ـ يتزايد به الخير ويتكاثر « إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا » أى عالماً بأحوالنا ، وبأن المدعوّ به مما يفيدنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] ( قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ )

[٣٧] ( وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ )

« قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ » أى أجيب دعاؤك . وقوله تعالى « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ » كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله ، وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول، ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاءمنه وطلب ، فَلَأَنْ ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداعٍ ، أولى وأحرى . وتصديره بالقسم ، لكمال الاعتناء بذلك . أفاده أبو السعود .

وقوله تعالى : « مَرَّةً أُخْرَىٰٓ » أى فى وقت آخر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] ( إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ )

[٣٩] ( أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ )

« إِذْ أَوْحَيْنَآ » أى ألقينا بطريق الإلهام « إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ » أى الصندوق « فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ » أى البحر ، متوكلةً على خالقه « فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى » لدعواه الألوهية « وَعَدُوٌّ لَّهُۥ » لدعوته إلى نبذ ما يدعيه .

قال الزمخشرىّ : لما كانت مشيئة الله تعالى وإرادته ـ أن لا تخطئ جرية اليم ، الوصولَ به إلى الساحل ، وإلقاءه إليه ـ سلك فى ذلك سبيل المجاز . وجعل اليم كأنه ذو تمييز أُمر بذلك ، ليطيع الأمر ويمتثل رسمه . فقيل ( فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ) أى على سبيل الاستعارة بالكناية . بتشبيه اليم بمأمور منقاد . وإثبات الأمر تخييل ، وقوله تعالى « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » أى : واقعة منى ، زرعتها فى قلب من يراك . ولذلك أحبك فرعون « وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ » أى ولتربَّى بيد العدوّ على نظرى بالحفظ والعناية . فـ( على عينى ) استعارة تمثيلية للحفظ والصون ، لأن المصون يجعل بمرأى . قيل : و(على) بمعنى الباء لأنه بمعنى بمرأى منى ، فى الأصل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] ( إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ، فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ، وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ، فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ )

« إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ » أى يضمن حضانته ورضاعته .

فقبلوا قولها . وذلك لأنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع فأباها كما قال تعالى[١] (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ) فجاءت أخته فقالت[٢] (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) فجاءت بأمه كما قال « فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ » أى مع كونك بيد العدوّ « كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا » أى برؤيتك « وَلَا تَحْزَنَ » أى بفراقك . فهذه منن زائدة على النجاة من القتل .

ثم أشار إلى مامنّ عليه بالنجاة من القتل الذى لايدفع بتلبيس، بقوله « وَقَتَلْتَ نَفْساً » أى من آل فرعون ، وهو القبطىّ الذى استغاثه عليه الإسرائيلىّ ، إذ وكزه موسى فقضى عليه. أى : فاغتممت للقصاص «فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ »أى غم القتل بأن صرفناعنك ماتخشاه. وذلك أنه عليه السلام فرّ من آل فرعون حتى ورد ماء مدين . وقال له ذلك الرجل الصالح (لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٣] «وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً» أى ابتليناك ابتلاء. على أن (الفتون) مصدر كالشكور، أو ضروبا من الفتن على أنه جمع (فتنة) أى فجعلنالك فرجاً ومخرجاً منها . وهو إجمال لما سبق ذكره .

« فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ » أى معزز الجانب مكنّ المؤونة فى عشرة أتقى رجل منهم وأصلحهم، وهو نبيّهم عليه السلام « ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ » أى بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة ، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلمك وأستنبئك فى وقت بعينه قد وقّته لذلك. فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولا مستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى ( يَا مُوسَىٰ ) تشريف له عليه الصلاة والسلام، وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولًا . وقوله تعالى :

---

(١) [٢٨/ القصص/ ١٢]. (٢) [٢٨/ القصص/ ١٢]. (٣) [ ٢٨/ القصص/ ٢٥ ].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] ( وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى )

[٤٢] ( ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى )

« وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى » تذكير لقوله تعالى ( وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ) وتمهيد لإرساله عليه السلام إلى فرعون مؤيداً بأخيه و(الاصطناع) افتعال من (الصنع) بمعنى الصنيعة. يقال: اصطنع الأمير فلاناً لنفسه ، أى جعله محلًّا لإكرامه باختياره وتقريبه منه ، بجعله من خواص نفسه وندمائه، فاستعير استعارة تمثيلية من ذلك المعنى المشبه به إلى المشبه. وهو جعله نبيًّا مكرماً كليماً منعماً عليه بجلائل النعم . قال أبو السعود : والعدول عن نون العظمة الواقعة فى قوله تعالى ( وَفَتَنَّـٰكَ ) ونظيريه السابقين ، تمهيد لإفراد لفظ (النفس) اللائق بالمقام، فإنه أدخل فى تحقيق معنى (الاصطناع) و ( الاستخلاص ) . ثم بيّن ماهو المقصود بـ( الاصطناع ) بقوله سبحانه « ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى » أى بمعجزاتى . كالعصا وبياض اليد وحل العقدة ، مع ما استظهره على يده « وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى » أى لا تفترا ولا تقصرا فى ذكرى بما يليق بى من النعوت الجليلة، عند تبليغ رسالتى والدعاء إلىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] ( ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ )

[٤٤] ( فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ )

«ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ» أى عقابى. فإن تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة. وقد بيّن ذلك فى قوله تعالى[1] ( فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ) وبمثل ذلك

(١) [ ٧٩ / النازعات / ١٨و١٩ ] .

أمر نبينا صلوات الله عليه فى قوله[1] : ( أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ) وظاهر أن الرجاء فى ( لعله ) إنما هو منهما ، لامن الله . فإنه لا يصح منه . ولذا قال القاضى : أى باشرا الأمر على رجائكما وطمعكما أنه يثمر ولا يخيب سعيكما . فإن الراجى ، مجتهد والآيس متكلف . والفائدة فى إرسالهما والمبالغة عليهما فى الاجتهاد ـ مع علمه بأنه لا يؤمن ـ إلزام الحجة ، وقطع المعذرة ، وإظهار ماحدث فى تضاعيف ذلك من الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] ( قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ )

[٤٦] ( قَالَ لَا تَخَافَا ، إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ )

« قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا » أى يبادرنا بالعقوبة «أَوْ أَن يَطْغَىٰ» أى يزداد طغياناً بالعناد، فى دفع حججنا، ثم يأمر بقتلنا. أو بالتخطى إلى أن يقول فى شأنك مالا ينبغى ، لجرأته وقسوة قلبه . واقتصر على الثانى الزمخشرىّ . وأفاد ؛ أن فى المجئ به هكذا على الإطلاق، وعلى سبيل الرمز، باباً من حسن الأدب، وتحاشياً عن التفوه بالعظيمة: «قَالَ لَا تَخَافَا » أى من فرطه وطغيانه « إِنَّنِي مَعَكُمَا » أى بالحفظ والنصرة «أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» أى مايجرى بينكما وبينه. فأرعا كما بالحفظ. فالمفعول محذوف للقرينة ، أو نزل منزلة اللازم تتميماً لما يستقل به الحفظ . كأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر ، سامع وبصير . وإذا كان الحافظ كذلك ، تمّ الحفظ والتأييد ، وذهبت المبالاة بالعدوّ .

---

(١) [ ١٦ / النحل / ١٢٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] ( فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ، قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ، وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ )

« فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بإطلاقهم من الأسر والعبودية . وتسريحهم معنا إلى وطننا فلسطين « وَلَا تُعَذِّبْهُمْ » أى بإبقائهم على ما هم عليه من التسخير والتذليل فى الأمور الشاقة « قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ » أى تحقق رسالتى إليك منه تعالى بذلك « وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ » أى فصدق بآيات الله المبينة للحق . وفيه من ترغيبه فى اتباعهما ، على ألطف وجه ، ما لا يخفى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] ( إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ )

« إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ » أى من ربنا « أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ » أى بآياته تعالى « وَتَوَلَّىٰ » أى أعرض عنها . وفيه من التلطيف فى الوعيد ، حيث لم يصرح بحلول العذاب به ، ما لا مزيد عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ( قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ )

[٥٠] ( قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ )

« قَالَ » أى فرعون « فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ » أى منح كل شىء من الأنفس البشرية ، صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، فسواه بها وعدّله ، ثم هداه بأن وهبه العقل الذى يميز بين الخير والشر .

وهـذه الآية فى معناها كآية[١] ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ) وآية[٢] ( وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ )

[٥٢] ( قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ، لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى )

« قَالَ » أى فرعون « فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى » أى ما حال القرون السالفة وما جرى عليهم ؟ وهـذا السؤال إما لصرف موسى عليه السلام عما يدعوه إليه أمام ملئه ، وإشغاله بما لا يعنى ما أرسل به ، وإما لتوهم أن الرسول يعـلم الغيب ، فأراد أن يقف على نبأ ما مضى ، ويفتح باباً للتخطئة والتـكذيب ، بالعناد واللجاج . فأجابه موسى عليه السلام بأن هذا سؤال عن الغيب وقد استأثر الله به . فلا يعلمه إلا هو . وليس من وظيفة الرسالة . وإنما علمها مكتوب فى اللوح المحفوظ ، محصىّ غير منسىّ . ويجوز أن يكون ( فِى كِتَٰبٍ ) تمثيلاً لتمـكنه وتقريره فى علم الله عز وجل ، بما استحفظه العالم وقيده بالـكتبة . قال فى العناية : فيشبه علمه تعالى بها علماً ثابتاً لا يتغير ، بمن علم شيئاً وكتبه فى جريدته ، حتى لا يذهب أصلاً ، فيـكون قوله ( لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ) ترشيحاً للتمثيل ، واحتراساً أيضاً . لأن من يفعل ذلك إنما يفعله لخوف النسيان . والله تعالى منزه عنه . فـ ( الـكتاب ) على هذا بمعناه اللغوىّ . وهو الدفتر ، لا اللوح المحفوظ . وقوله تعالى :

---

(١) [ ٩١ / الشمس / ٧و٨ ] . (٢) [ ٩٠ / البلد / ١٠ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ( ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ )

« ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا » أى فراشاً « وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ » أى أصنافاً من نبات مختلفة الأجناس ، فى الطعم والرائحة والشكل والنفع .

لطيفة :

جعل الزمخشرىّ قوله تعالى ( فَأَخْرَجْنَا ) من باب الالتفات . وناقشه الناصر ؛ بأن الالتفات إنما يكون فى كلام المتكلم الواحد . يصرّف كلامه على وجوه شتى . وما نحن فيه ليس كذلك . فإن الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام قوله لفرعون ( عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ) ثم قوله ( ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ) إلى قوله ( فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ) فإما أن يجعل من قول موسى ، فيكون من باب قول خواص الملك ( أمرنا وعمرنا ) وإنما يريدون الملك ، وليس هذا بالتفات . وإما أن يكون كلام موسى قد انتهى عند قوله ( وَلَا يَنسَى ) ثم ابتدأ الله تعالى وصف ذاته بصفات إنعامه على خلقه ، فليس التفاتاً أيضاً . وإنما هو انتقال من حكاية إلى إنشاء خطاب. وعلى هذا التأويل ينبغى للقارئ أن يقف وُقَيْفَةً عند قوله ( وَلَا يَنسَى ) ليستقر بانتهاء الحكاية . ويحتمل وجها آخر وهو ؛ أن موسى وصف الله تعالى بهذه الصفات على لفظ الغيبة. فقال ( ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ) فلما حكاه الله تعالى عنه ، أسند الضمير إلى ذاته. لأن الحاكى هو المحكىّ فى كلام موسى . فمرجع الضميرين واحد . وهذا الوجه وجه حسن رقيق الحاشية . وهذا أقرب الوجوه إلى الالتفات . لكن الزمخشرىّ لم يعنه . والله أعلم . انتهى كلام الناصر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ( كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ )

[٥٥] ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ )

« كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ » حال من ضمير ( فَأَخْرَجْنَا ) على إرادة القول « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ * مِنْهَا » أى من الأرض « خَلَقْنَاكُمْ » أى خلقنا أصلكم وهو آدم . أو خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة عن الأغذية ، المتولدة من الأرض بوسائط « وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ » أى بالإماتة إعادة البذر إلى الأرض « وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ » أى بردّهم كما كانوا ، أحياء . ثم أشار تعالى إلى عتوّ فرعون وعناده ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ( وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ )

[٥٧] ( قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ )

[٥٨] ( فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى )

« وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا » أى من العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين « فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى » أى مستوياً واضحاً يجمعنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٩] ( قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى )

[٦٠] ( فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ )

« قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ » وهو يوم مشتهر عندهم باجتماع الناس فيه « وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى » أى ضحوة النهار ليكون الأمر مكشوفاً لا سترة فيه « فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ » أى انصرف عن المجلس « فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ » أى ما يكيد به موسى ، من السحرة وأدواتهم « ثُمَّ أَتَىٰ » أى الموعد ومعه ما جمعه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] ( قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ )

[٦٢] ( فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ )

[٦٣] ( قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ )

« قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ » أى مقدماً لهم النصح والإنذار ، لينقطع عذرهم « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة . فتكونوا قد كذبتم على الله تعالى « فَيُسْحِتَكُم » أى يستأصلكم « بِعَذَابٍ » أى هائل لغضبه عليكم « وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ * فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ * قَالُوٓا۟ » أى بطريق التناجى والإسرار « إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ » أى بمذهبكم

الأفضل . وهو ما كانوا عليه . يعنون أن قصد موسى وهرون هو عزل فرعون عن ملكه ، بجعله عبدا لغيره ، واستقرارهما فى مكانه ، وجعل قومهما مكانكم . وإلجائكم إلى مبارحة أرضكم ، وإبطال طريقتكم بسحرهما الذى يريدان إعجازكم به . و ( ٱلْمُثْلَىٰ ) تأنيث الأمثل، بمعنى الأفضل . ودعواهم ذلك ، لأن كل حزب بما لديهم فرحون .

لطيفة :

فى قوله تعالى ( إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ ) قراءات .

الأولى ـ ( إِنَّ هَٰذَيْنِ لَسَٰحِرَانِ ) بتشديد النون من ( إِنَّ ) و ( هَٰذَيْنِ ) بالياء وهى قراءة أبى عمرو ، وهى جارية على السَّنَنِ المشهور فى عمل ( إِنَّ ) .

والثانية ـ ( إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ ) بتخفيف (إنّ ) وإهمالها عن العمل، كما هو الأكثر فيها إذا خففت . وما بعدها مرفوع بالابتداء والخبر . واللام لام الابتداء فرقاً بينها وبين النافية . ويرى الكوفيون أن اللام هذه بمعنى ( إِلَّا ) و ( إنْ ) قبلها نافية ، واستدلوا على مجىء اللام للاستثناء بقوله[1] :

أمسى أبانُ ذليلًا بعد عِزَّتِه وما أبانُ لَمِنْ أعلاج سُودَانِ

والثالثة ـ ( إِنَّ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ ) بتشديد ( إنَّ ) و ( هذان ) بالألف . وخرّجت على أوجه :

أحدها ـ موافقة لغة من يأتى فى المثنى بالألف فى أحواله الثلاث . وهم بنو الحرث ابن كعب وخثعم وَزُبَيْد وكنانة وآخرون . قال قائلهم[2]:

* تَزَوَّدَ مِنَّا بين أُذْنَاهُ طَعْنَةً *

---

(١) انظر الشاهد رقم ٣٨٥ من ( مغنى اللبيب لابن هشام ) .

(٢) انظر الشاهد الرابع عشر من ( شذور الذهب لابن هشام ) وعجز البيت :

* دَعَتْهُ إلى هابِى التراب عَقِيمُ *

وقال آخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا قد بَلَغَا فى الْمَجْدِ غَايَتَاهَا

ثانيها ـ إنَّ ( إنَّ ) بمعنى ( نعم ) حكاه المبرد . واستدل بقول الراجز[٢] :

يا عمر الخيرِ جُزِيتَ الجَنَّهْ اكسُ بُنَيَّاتِى وَأُمَّهُنَّهْ

وَقُلْ لَهُنَّ : إنَّ أَنَّ إنَّهْ أُقْسِمُ باللهِ لَتَفْعَلَنَّهْ

وقول[٣] عبد الله بن قيس الرُّقَيَّات :

وَيَقُلْنَ شيب قد عــلا كَ وقد كَبِرْتَ فقلتُ إنَّهْ

وردَّ على المبرد أبو على الفارسىّ ، بأنه لم يتقدم ما يجاب بـ ( نعم ) وأجاب الشمّنى ، بأن التنازع فيما بينهم ، وإسرار النجوى ، يتضمن استخبار بعضهم من بعض . فهو جواب للاستخبار الضمنىّ . ولا يخفى بعده . فإن إسرار النجوى فيما بينهم ليس فى الاستخبار عن كونهما ساحرين ، بل هم جزموا بالسحر فقالوا[٤] : ( أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ) ثم أسروا النجوى فيما يغلبان به موسى . إلا أن يقال : محطّ الجواب قوله ( فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ) الخ ، وما قبله توطئة . وقد رد فى ( المغنى ) هذا التخريج ؛ بأن مجئ ( نعم ) شاذ حتى نفاه بعضهم . ومنعه الدماميني ؛ بأن سيبويه والحذّاق حكوه عن الفصحاء . وعليه ، فاللام فى ( لَسَحِرَانِ ) لام الابتداء ، زحلقت للخبر . وأبى البصريون دخولها على الخبر . وزعموا أنها فى مثله داخلة على مبتدأ محذوف ، أو زائدة ، أو دخلت مع ( إن ) التى بمعنى ( نعم ) لشبهها بالمؤكدة لفظاً .

وأقول : فيه تكلف . والشواهد على اقتران الخبر باللام كثيرة .

---

(١) انظر الشاهد رقم ٥١ من ( مغنى اللبيب لابن هشام ) .

(٢) لم أهتد إليه الآن ، وخصوصا الشطر الثالث .

(٣) انظر الشاهد رقم ٤٩ من ( مغنى اللبيب لابن هشام ) . (٤) [ ٢٠ / طه / ٥٧ ] .

وثالثها ـ أنه لما كان الإعراب لايظهر فى الواحد ، وهو ( هذا ) جعل كذلك فى التثنية، ليكون المثنى كالمفرد . لأنه فرع عليه . واختار هـذا القول الإمام العلامة تقىّ الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، وزعم أن بناء المثنى ، إذا كان مفرده مبنيًّا ، أفصح من إعرابه . قال : وقد تفطن لذلك غير واحد من حذاق النحاة . ثم اعترض بأمرين :

أحدهما ـ أن السبعة أجمعوا على الياء فى قوله تعالى [١] : ( إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ ) مع أن هاتين تثنية ( هاتا ) وهو مبنىّ .

والثانى ـ أن ( الذى ) مبنى وقد قالوا فى تثنيته ( ٱلَّذَيْنِ ) فى الجر والنصب . وهى لغة القرآن ، كقوله تعالى [٢] : ( رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ) وأجاب الأول ؛ بأنه إنما جاء ( هاتين ) بالياء على لغة الإعراب لمناسبة ( ابنتىّ ) قال : فالإعراب هنا أفصح من البناء ، لأجل المناسبة . كما أن البناء فى ( إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ ) أفصح من الإعراب لمناسبة الألف فى ( هذان ) للألف فى ( ساحران ) . وأجاب عن الثانى بالفرق بين ( اللذان ) و ( هذان ) بأن ( اللَّذان ) تثنية اسم ثلاثىّ ، فهو شبيه ( بالزيدان ) و ( هذان ) تثنية اسم على حرفين . فهو عريق فى البناء لشبهه بالحروف . قال رحمه الله : وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ ( إنّ هذان ) لحن وإن عثمان رضى الله عنه قال ( إن فى المصحف لحنا وستقيمه العرب بألسنتها ) وهذا خبر باطل لايصح من وجوه .

أحدها ـ إن الصحابة كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات ، فكيف يقرّون اللحن فى القرآن ، مع أنهم لا كلفة عليهم فى إزالته ؟

والثانى ـ أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح فى الكلام ، فكيف لايستقبحون بقاءه فى المصحف ؟

---

(١) ٢٨ / القصص / ٢٧ ] .  (٢) [ ٤١ / فصلت / ٢٩ ] .

والثالث ـ أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم . لأن المصحف الكريم يقف عليه العربيّ والعجميّ .

والرابع ـ أنه قد ثبت فى الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب ( التابوت ) بالهاء على لغة الأنصار ، فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمان رضى الله عنهم . فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش . ولما بلغ عمر رضى الله عنه أن ابن مسعود رضى الله عنه قرأ : عَتَّى حِين ، على لغة هذيل ، أنكر ذلك عليه وقال : أقرئ الناس بلغة قريش . فإن الله تعالى إنما أنزله بلغتهم ، ولم ينزله بلغة هذيل . انتهى كلام تقيّ الدين ملخصاً .

هـذا حاصل ما فى ( المغنى ) و ( الشذور ) و ( حواشيهما ) وفى الآية وجوه أخرى استقصتها المطولات . وما ذكرناه أرقها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ، وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ )

« فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ » تصريح بالمطلوب ، إثر تمهيد المقدمات . والفاء فصيحة . أى إذا كان الأمر كما ذكر ، من كونهما ساحرين ، يريدان بكم ماذكر من الإخراج ، والإذهاب ، فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه ، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم . أفاده أبو السعود . وقوله تعالى « ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا » أى مصطفين ، ليكون أهيب فى صدور الرائين « وَقَدْ أَفْلَحَ » أى فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملئه « ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ » أى علا وغلب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ )

[٦٦] ( قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ )

« قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ » أى التى ألقوها « يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ » أى حيّات تسعى على بطونها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ( فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ )

[٦٨] ( قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ )

[٦٩] ( وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا ، إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ، وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ )

« فَأَوْجَسَ » أى أحس « فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ » وذلك لما جُبِلَ عليه الإنسان من النفرة من الحيات . أو خاف من توهم الخلق المعارضة ، بأن لهم من حبالهم وعصيهم حيات. كما أن له من عصاه حيّة « قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا » أى تلتقطه بفمها « إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ » فى مقابلة آية ربانية « وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ » أى لا يفوز بمطلوبه ، أىَّ مكانٍ جَاءَ لدفع الحق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] ( فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ )

[٧١] ( قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ، فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ )

« فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا » أى فألقى موسى عصاه فتلقفت ماصنعوا فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ، لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر ، وإنما هى آية ربانية « قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ

وَمُوسَىٰ قَالَ » أى فرعون « ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ » أى فاتفقتم معه ليكون لكم الملك « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى من جانبين متخالفين « وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ » أى التى هى أقوى الأخشاب وأخشنها « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ » يعنى أنكم إنما آمنتم برب موسى خوفاً من شدة عذابه ، أو من تخليده فى العذاب ( وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ) فإن رب موسى لم يقطع من أحد يده ورجله من خلاف ، ولم يصلبه فى جذوع النخل ، ولم يبقه مصلوبا ، قاله المهايمى . وضعّفه الزمخشرى بأن فرعون يريد نفسه وموسى عليه السلام ، بدليل قوله ( ءَامَنتُمْ لَهُۥ ) أى لموسى . واللام مع الإيمان ، فى كتاب الله ، لغير الله تعالى كقوله تعالى ( يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ) وقصده إظهار اقتداره وبطشه ، وما ضرى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب . وتوضيع موسى عليه السلام واستضعافه مع الهزء به ، لأن موسى لم يكن قط من التعذيب فى شىء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٢] ( قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ، فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ، إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ )

« قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ » أى نختارك بالإيمان والاتباع « عَلَىٰ مَا جَآءَنَا » أى من الله على يد موسى « مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا » أى وعلى الذى خلقنا . واختيارُ هذا الوصف للإشعار بعلة الحكم . فإن خالقيته تعالى لهم ، وكون فرعون من جملة مخلوقاته ، مما يوجب عدم إيثارهم له عليه ، سبحانه وتعالى . وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله ( ءَامَنتُمْ لَهُۥ ) وقيل هو قسم محذوف الجواب « فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ » أى اصنع ما أنت صانعه . وهذا جواب عن تهديده بقوله ( لَأُقَطِّعَنَّ ) الخ « إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ » أى فيها وهى لا بقاء لها ، ولا سلطان لك بعدها . وإنما البغية الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] ( إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ، وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ )

« إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ » أى ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] ( إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ )

« إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا » أى فينقضى عذابه « وَلَا يَحْيَىٰ » أى حياة طيبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] ( وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ )

« وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ » أى المنازل الرفيعة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ )

« جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ » أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى ، بما ذكر من الإيمان والأعمال الصالحة .

لطائف :

من ( الكشاف ) و ( حواشيه للناصر ) .

الأولى ـ فى تخيير السحرة بين إلقاء موسى وإلقائهم ، استعمال أدب حسن معه ، وتواضع له

وخفض جناح . وتنبيه على إعطائهم النصفة من أنفسهم . وكأن الله عز وعلا ألهمهم ذلك ، وعلم موسى ـ صلوات الله عليه ـ اختيار إلقائهم ، أوّلًا ، مع ما فيه من مقابلة أدب بأدب ، حتى يبرزوا ما معهم من مكايد السحر ، ويستنفدوا أقصى طرقهم ومجهودهم . فإذا فعلوا أظهر الله سلطانه ، وقذف بالحق على الباطل فدمغه ، وسلط المعجزة على السحر فمحقته ، وكانت آية نيرة للناظرين . وعبرة بينة للمعتبرين . وقبل ذلك تأدبوا معه بقولهم ( فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ ) ففوضوا ضرب الموعد إليه . وكما ألهم الله عز وجل موسى ههنا ، أن يجعلهم مبتدئين بما معهم ، ليكون إلقاؤه العصا ، بعدُ ، قذفاً بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، كذلك ألهمه من الأول ، أن يجعل موعدهم يوم زينتهم وعيدهم ، ليكون الحق أبلج على رؤوس الأشهاد ، فيكون أفضح لكيدهم وأهتك لستر حرمهم .

الثانية ـ جوز فى إيثار قوله تعالى ( مَا فِي يَمِينِكَ ) على ( عَصَاكَ ) وجهان : أحدهما ـ أن يكون تعظيما لها . أى لاتحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة . فإن فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها . وهذه على كثرتها أقل شىء وأنزره عنده . فألقه يتلقفها بإذن الله ويمحقها . وثانيهما ـ أن يكون تصغيراً لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم . وألق العُوَيْد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك . فإنه بقدرة الله يتلقفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وإنما المقصود بتحقيرها فى جنب القدرة ، تحقير كيد السحرة بطريق الأوْلى . لأنها إذا كانت أعظم مُنَّةً وهى حقيرة فى جانب قدرة الله تعالى ، فما الظن بكيدهم وقد تلقفته هذه الحقيرة الضئيلة ؟

ولأصحاب البلاغة طريق فى علوّ المدح بتعظيم جيش عدوّ الممدوح ، ليلزم من ذلك تعظيم جيش الممدوح وقد قهره واستولى عليه . فصغر الله أمر العصا ، ليلزم منه كيد السحرة الداحض بها فى طرفة عين .

واعلم أنه لابد من نكتة تناسب الأمرين ـ التعظيم والتحقير ـ وتلك ، والله أعلم ،

هى إرادة المذكور مبهما . لأن ( مَا فِى يَمِينِكَ ) أبهم مِنْ ( عَصَاكَ ) وللعرب مذهب فى التنكير والإبهام ، والإجمال ، تسلكه مرة لتحقير شأن ما أبهمته ، وأنه عند الناطق به أهون من أن يخصه ويوضحه . ومرة لتعظيم شأنه ، وليؤذن أنه من عناية المتكلم والسامع بمكان ، يغنى فيه الرمز والإشارة . فهذا هو الوجه فى إسعاده بهما جميعاً .

ثم قال الناصر : وعندى فى الآية وجه سوى قصد التعظيم والتحقير . والله أعلم . وهو ؛ أن موسى عليه السلام ، أول ما علم أن العصا آية من الله تعالى ، عندما سأله عنها بقوله تعالى ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ) ثم أظهر له تعالى آيتها ، فلما دخل وقت الحاجة إلى ظهور الآية منها ، قال تعالى (وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ) ليتيقظ بهذه الصيغة للوقت الذى قال الله تعالى له ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ) وقد أظهر له آيتها ، فيكون ذلك تنبيهاً له وتأنيساً ، حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به وقت ظهور آيتها . وذلك مقام يناسب التأنيس والتثبيت . ألا ترى إلى قوله تعالى ( فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ) ؟ انتهى .

ولأبى حيان نكتة أخرى . وهى ما فى اليمين من الإشعار باليمن والبركة . ولا يقال جاء فى سورة الأعراف ( أَلْقِ عَصَاكَ ) والقصة واحدة . لأنه يجاب بأنه مانع من رعاية هذه النكتة فيما وقع هنا ، وحكاية ما جاء بالمعنى .

هذا وقال الشهاب الخفاجىّ : فيما ذكروه نظر لأنه إنما يتم إذا كان الخطاب بلفظ عربىّ أو مرادفٍ له ، يجرى فيه ما يجرى فيه . والأول خلاف الواقع . والثانى دونه خرط القتاد ، فتأمل .

أقول إنما استبعد الثانى ، لتوهم أن لا بلاغة ولا نكات إلا فى اللغة العربية . مع أن الأمر ليس كذلك . وحينئذ فيتعين الثانى . وهو ظاهر . وبه تستعاد تلك اللطائف . ثم أشار تعالى إلى عنايته بموسى وقومه ، من إنجائهم وإهلاك عدوهم ، وقد طوى هنا ما فصل فى آيات أخر ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ )

«وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى» أى سر بهم من مصر ليلًا « فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا » أى يابساً . فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وجاوزه إلى ساحله « لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا » أى لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك « وَلَا تَخْشَىٰ » أى غرقاً من بين يديك ، ووحلًا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ )

[٧٩] ( وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ )

« فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ » لأنه ندم على الإذن بتسريحهم من مصر ، وأنهم قهروه على قلتهم كما قال[1] ( إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ) فتبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم ، ونزلوا فى الطريق الذى سلكوه . ففاجأهم الموج كما قال تعالى « فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ » أى علاهم منه وغمرهم ، ما لا يحاط بهوله « وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ » أى أوردهم الهلاك ، بعتوّه وعناده فى الدنيا والآخرة . وما هداهم سبيل الرشاد .

ثم ذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الكبرى ، وما وصاهم من المحافظة على شكرها ، وحذرهم من التعرض لغضبه بكفرها ، بقوله سبحانه :

---

(١) [ ٢٦ / الشعراء / ٥٤و٥٥ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ( يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ )

[٨١] ( كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى، وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ )

« يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ » وهو فرعون وقومه . فقد كانوا يسومونكم سوء العذاب . يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم . وذلك بأن أقر أعينكم منهم، بإغراقهم، وأنتم تنظرون. « وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ » أى بمناجاة موسى وإنزال التوراة عليه . واليهود السامرية تزعم أن هذا الجبل فى ( نابلس ) ويسمونه ( جبل الطور ) ويذكر فى الجغرافيا بلفظ ( عيبال ) ولهم عيد سنوىّ فيه يصعدون إليه ، ويقربون فيه القرابين . والله أعلم .

قال الزمخشرىّ : وإنما عدَّى المواعدة إليهم ، لأنها لابستهم واتصلت بهم ، حيث كانت لنبيهم ونقبائهم . وإليهم رجعت منافعها التى قام بهم دينهم وشرعهم، وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه .

و ( جانب ) مفعول فيه ، أو مفعول به على الاتساع . أو بتقدير مضاف . أى إتيان جانب . « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ » أى من لذائذه . فإن المن كالعسل . والسلوى من الطيور الجيد لحمها « وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ » أى فيما رزقناكم ، بأن يتعدى فيه حدود الله ، ويخالف ما أمر به « فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ » أى هلك .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ )

« وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ » أى تاب عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق ، وعمل صالحا بجوارحه ، ثم اهتدى ، أى استقام وثبت على الهدى المذكور . وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح . ونحوه قوله تعالى[1] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ) وفى الآية ترغيب لمن وقع فى وهدة الطغيان ، ببيان المخرج له منه ، كى لا ييأس . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] ( وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ )

« وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ » أى أىُّ شىء عجّل بك عنهم ، على سبيل الإنكار ، وكان قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور ، على الموعد المضروب ، ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ورضاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ )

« قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى » أى قادمون ينزلون بالطور ، وإنما سبقتهم بما ظننت أنه خير . ولذا قال « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ » أى عنى ، بمسارعتى إلى الامتثال بأمرك . واعتنائى بالوفاء بعهدك . وزيادة ( رَبِّ ) لمزيد الضراعة والابتهال ، رغبةً فى قبول العذر . أفاده أبو السعود .

---

(١) [ ٤١ / فصلت / ٣٠ ] و [ ٤٦ / الأحقاف / ١٣ ] .

فإن قيل: كان مقتضى جواب السؤال من موسى أن يقول ( طلبُ زيادة رضاك أو الشوقُ إلى كلامك ) فالجوابُ . أن هـذا من الغفلة عن سرِّ الإنكار . وذلك لأن الإنكار بالذات إنما هو للبعد والانفصال عنهم . فهو منصبّ على القيد . كما عرف فى أمثاله. فالسؤال فى المعنى عن الانفصال الذى يتضمنه ( أعجلك ) المتعدى بـ ( عن ) . وإنكار العجلة لأنها وسيلة له . فالجواب ( هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ) . وقوله ( وَعَجِلْتُ ) الخ تتميم . وقيل الجواب إنما هو قوله ( وَعَجِلْتُ ) الخ ، وما قبله تمهيد له .

وقال الناصر: إنما أراد الله تعالى بسؤاله عن سبب العجلة، وهو أعلم، أن يعلم موسى أدب السفر. وهو أنه ينبغى تأخُّرُ رئيس القوم عنهم فى المسير، ليكون نظره محيطا بطائفته، ونافذا فيهم ، ومهيمنا عليهم . وهذا المعنى لايحصل فى تقدمه عليهم ، ألا ترى الله عز وجل كيف علم هذا الأدب، لوطا، فقال[1] ( وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ ) فأمره أن يكون أخيرهم. على أن موسى عليه السلام إنما أعفل هـذا الأمر مبادرة إلى رضاء الله عز وجل ، ومسارعة إلى الميعـاد . وذلك شأن الموعود بما يسره ، يود لو ركب إليه أجنحة الطير . ولا أسرَّ من مواعدة الله تعالى له ﷺ . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] ( قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ )

« قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ » أى ابتليناهم بعد ذهابك للمناجاة « وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ » يعنى اليهودىّ الذى وسوس لهم أن يعبدوا عجلًا يتخذوه إلها ، لما طالت عليهم غيبة موسى ويئسوا من رجوعه . و ( السامرى ) فى لغة العرب ، بمعنى اليهودىّ . وقد قال بالظن ، من ادعى تسميته أو حاول تعيينه . وأما الطائفة السامرية الآن فهم فئة من اليهود فى ( نابلس ) قليلة العدد تخالف بقية اليهود فى جلّ عاداتها .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦٥ ] .

وقد تضمنت هذه الجملة ـ أعنى إخباره تعالى لموسى بالفتنة ـ الأمر ـ برجوعه لقومه ، وإصلاحه مافسد من حالهم ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ، أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى )

« فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا » أى حزيناً « قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا » أى بإنزال التوراة علىّ ، ورجوعى بها إليكم « أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ » أى زمان الإنجاز ، أو مجيئى « أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى » أى وعدكم إياى بالثبات على ما أمرتكم به إلى أن أرجع من الميقات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] ( قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ )

[٨٨] ( فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ )

« قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا » قرئ بالحركات الثلاث على الميم .

قال الزمخشرىّ : أى ما أخلفنا موعدك ، بأن ملكنا أمرنا . أى لو ملكنا أمرنا ، وخلينا وراءنا ، لما أخلفناه . ولكن غلبنا من جهة السامرىّ وكيده « وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ » بفتح الحاء مخففاً ، وبضمها وكسر الميم مشدداً « أَوْزَارًا » أى أثقالاً وأحمالاً « مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ »

أى من حلىّ القبط ، قوم فرعون ، وهو حلىٌّ نسائهم « فَقَذَفْنَـٰهَا » أى فى النار لسبكها « فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ » أى كان إلقاؤه « فَأَخْرَجَ لَهُمْ » أى من تلك الحلىّ المذابة « عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ » أى صوت عجل . وقد قيل : إنه صار حيًّا ، وخار كما يخور العجل . وقيل: لم تحلّه الحياة وإنما جعل فيه منافذ ومخارق، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل . أفاده الرازىّ .

وقوله « فَقَالُوا۟ » أى السامرىُّ ومن افتتنوا به «هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ» أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور . ثم أنكر تعالى على من ضل بهذا العجل وأضل ، مسفها، لهم فيما أقدموا عليه ، مما لا يشتبه بطلانه على أحد ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] ( أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا )

«أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ» أى العجل «إِلَيْهِمْ قَوْلًا» أى لا يردد لهم جواباً «وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا» أى دفع ضرّ ولا جلب نفع ، أى فكيف يتخذ إلهاً ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ، وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى )

« وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ » أى قبل رجوع موسى إليهم « يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ » أى ضللتم بعبادته « وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى » فى عبادته سبحانه ، ونبذ العجل .

---

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] ( قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ )

[٩٢] ( قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا )

[٩٣] ( أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى )

« قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ * قَالَ » أى موسى « يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا أَلَّا تَتَّبِعَنِ » أى فى الغضب لله ، وشدة الزجر عن الكفر. و (لا) مزيدة . أو المعنى ماحملك على أن لا تتبعنى ، بحمل النقيض على النقيض. فإن المنع عن الشىء مستلزم للحمل على مقابله. أو مامنعك أن تلحقنى وتخبرنى بضلالهم ، فتكون مفارقتك مزجرة لهم «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى» وهو ما أمره به من أن يخلفه فى قومه ، ويصلح مايراه فاسداً.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] ( قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ، إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى )

« قَالَ » أى هرون « يَبْنَؤُمَّ » بكسر الميم وفتحها . أراد ( أمى ) وذكرها أعطف لقلبه « لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ » أى بشعره . وكان قبض عليهما يجره إليه من شدة غضبه : « إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى بتركهم لا راعى لهم « وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى » أى لم تراعه فى الاستخلاف والوجود بين ظهرانيهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] ( قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ )

« قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ » أى ثم أقبل على السامرى وقال له منكراً : ما شأنك فيما صنعت ؟ وما دعاك إليه ؟

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] ( قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى )

[٩٧] ( قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ، وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ، وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ، لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا )

« قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ » أى فطنت لما لم يفطنوا له « فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا » أى فى الحلىّ المذاب حتى حَىَّ « وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى » أى حسّنته وزينته « قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ » أى لعذابك « مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا » أى لنطيّرنّه رماداً فى البحر ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .

## تنبيهات

الأول ـ اعلم أن هرون عليه السلام ، سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه . لأنه زجرهم عن الباطل ، أوّلا بقوله ( إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ) ثم دعاهم لمعرفة الله تعالى ثانياً بقوله ( وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ) ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله تعالى ( فَٱتَّبِعُونِى ) ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله ( وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ) وهذا هو الترتيب الجيّد . لأنه لا بد قبل كل شىء فى إماطة الأذى عن الطريق ، وهو إزالة الشبهات . ثم معرفة الله تعالى ، فإنها هى الأصل . ثم النبوة ثم الشريعة . فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه . أفادة الرازىّ .

وقد برأ الله تعالى بهذه الآيات البينات ، هرون عليه السلام مما افتراه عليه كتبة التوراة ،

من أنه هو السامرىّ الذى اتخذ العجل وأمر بعبادته ، كما هو موجود عندهم . وهو من أعظم الفرى ، بلا امترا .

الثانى ـ عامة المفسرين قالوا : المراد بالرسول فى قوله تعالى ( فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ) هو جبريل عليه السلام . وأراد بأثره ، التراب الذى أخذه من موضع حافر دابته. ثم اختلفوا : أن السامرىّ متى رآه ؟ فقيل : إنما رآه يوم فلق البحر . وقيل : وقت ذهابه بموسى إلى الطور .

واختلفوا أيضاً فى: أن السامرىّ كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام، ومعرفته من بين سائر الناس ؟ فقيل إنما عرفه لأنه رآه فى صغره ، وحفظه من قتل آل فرعون له ، وكان ممن رباه. وكل هذا ليس عليه أثارة من علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم. ولذا قال أبو مسلم الأصفهانىّ : ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون . فههنا وجه آخر وهو : أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام. وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل: فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره، إذا كان يمتثل رسمه . والتقدير ، أن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرىّ باللوم ، والمسألة عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم فى باب العجل ، فقال ( بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ـ ) أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئاً من سنتك ودينك . فقذفته ، أى طرحته . فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة. وإنما أورد بلفظ الإخبار عن غائب ، كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا ؟ وبماذا يأمر الأمير ؟

وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولاً ، مع جحده وكفره ، فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله[1] ( يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ) وإن لم يؤمنوا بالإنزال . انتهى .

(١) [ ١٥ / الحجر / ٦ ] .

قال الرازيّ : ما ذكره أبو مسلم أقرب إلى التحقيق مما ذكره المفسرون ، لوجوه :

أحدها ـ أن جبريل عليه السلام ليس بمشهور بامم الرسول . ولم يجر له فيما تقدم ذكر ، حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه . فإطلاق لفظ ( الرسول ) لإرادة جبريل عليه السلام ، كأنه تكليف بعلم الغيب .

وثانيها ـ أنه لابد فيه من الإضمار . وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول . والإضمار خلاف الأصل .

وثالثها ـ أنه لابد من التعسف فى بيان أن السامريّ كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ؟ ثم كيف عرف أن لِتُرَابِ حافر فرسه هذا الأثر؟ والذى ذكروه من أن جبريل عليه السلام هو الذى رباه ، فبعيد . لأن السامريّ ، إن عرف جبريل حال كمال عقله ، عرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبيّ صادق . فكيف يحاول الإضلال ؟ وإن كان ماعرفه حال البلوغ ، فأىّ منفعة لكون جبريل عليه السلام مربياً له حال الطفولية ، فى حصول تلك المعرفة ؟ انتهى .

التنبيه الثالث فى قوله تعالى ( لَا مِسَاسَ ) وجوه :

أحدها ـ إنى لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ .

وثانيها ـ المراد المنع من أن يخالط أحداً أو يخالطه أحد ، عقوبة له .

ثالثها ـ ما ذكره أبو مسلم من أنه يجوز فى حمله ( ما أريد مسى النساءَ ) فيكون من تعذيب الله إياه انقطاع نسله . فلا يكون له ولد يؤنسه ، فيخليه الله تعالى من زينتى الدنيا اللتين ذكرهما بقوله[1] ( ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ) أى لأن المسّ يكنى به عن النكاح كما فى آية[2] ( مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ) والله أعلم .

---

(١) [ ١٨ / الكهف / ٤٦ ] . (٢) [ ٢ / البقرة / ٢٣٧ ] .

ولما فرغ موسى عليه السلام من إبطال ما دعا إليه السامرىّ ، عاد إلى بيان الدين الحق ، فقال :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٨] ( إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا )

« إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ » أى المستحق للعبادة والتعظيم « ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » أى أحاط علمه كل شىء . ثم أشار تعالى إلى فضله ، فيما قصه على خاتم رسله صلوات الله عليه ، من أنباء الأنبياء ، تنويهاً بشأنه ، وزيادة فى معجزاته ، وتكثيرًا للاعتبار والاستبصار فى آياته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٩] ( كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا )

« كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا » أى كتاباً عظيماً جامعاً لكل كمال ، وسمى القرآن ( ذِكْرًا ) لما فيه من ذكر ما يحتاج إلى الناس من أمر دينهم ودنياهم ، ومن ذكر آلاء الله ونعمائه . ففيه التذكير والمواعظ . ولما فيه من الذكر والشرف له صلوات الله عليه ولقومه .

قال الرازىّ : وقد سمى تعالى كل كتبه ( ذكراً ) فقال[1] ( فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ) .

ثم ، كما بيّن تعالى نعمته بذلك ، بيّن شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به ، بقوله :

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٤٣ ] .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٠] ( مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا )

[١٠١] ( خَٰلِدِينَ فِيهِ ، وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا )

« مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا » أى إثماً . يعنى عقوبة ثقيلة. شبهت بالحمل الثقيل لثقلها على المعاقَب وصعوبة احتمالها « خَٰلِدِينَ فِيهِ » أى فى احتماله المستمر « وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا » . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ، وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا )

[١٠٣] ( يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا )

« يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ » بدل من يوم القيامة أو منصوب بمحذوف . والنفخ فى الصور تمثيل لبعث الله للناس يوم القيامة بسرعة لا يمثلها إلا نفخة فى بوق[1] ( فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) وعلينا أن نؤمن بما ورد من النفخ فى الصور . وليس علينا أن نعلم ما هى حقيقة ذلك الصور . والبحث وراء هذا ، عبث لا يسوغ للمسلم . أفاده بعض المحققين .

« وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ » أى نسوقهم إلى جهنم « يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » أى زرق الوجوه . الزرقة تقرب من السواد . فهو بمعنى آية[2] ( وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ) .

وقال أبو مسلم : المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم . والأزرق شاخص ، لأنه لضعف بصره ، يكون محدقاً نحو الشىء يريد أن يتبينه . وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره . وهو كقوله تعالى[3] ( إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ) نقله الرازىّ . والأول أظهر.

(١) [ ٣٩ / الزمر / ٦٨ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ١٠٦ ] .
(٣) [ ١٤ / إبراهيم / ٤٢ ] .

« يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ » أى يتسارّون من الرعب والهول، أو من الضعف، قائلين « إِن لَّبِثْتُمْ » أى فى الدنيا « إِلَّا عَشْرًا » أى عشر ليال. قال الزمخشرىّ: يستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا، إما لما يعاينون من الشدائد التى تذكرهم أيام النعمة والسرور ، فيتأسّفون عليها ويصفونها بالقصر . لأن أيام السرور قصار . وإما لأنها ذهبت عنهم وتقضّتْ . والذاهب ، وإن طالت مدته ، قصير بالانتهاء . ومنه توقيع عبد الله بن المعتز تحت: أطال الله بقاءك ( كفى بالانتهاء قصرًا ) . وإما لاستطالتهم الآخرة ، وأنها أبد سرمد ، يستقصر إليها عمر الدنيا ، ويتقالّ لبث أهلها فيها ، بالقياس إلى لبثهم فى الآخرة . وقد استرجح الله قول من يكون أشد تقالًّا منهم ، فى قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا )

« نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً » أى أعدلهم رأياً « إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا » ونحوه قوله تعالى[1] ( قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ) انتهى .

قال أبو السعود : ونسبة هذا القول إلى أمثلهم، استرجاع منه تعالى له، لكن لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدلّ على شدة الهول . أى: ولكونه منتهى الأعداد القليلة. وكذلك لبثهم بالنسبة إلى الخلود السرمدىّ، وإلى تقضّى الغائب الذى كأنْ لم يكن. ولا ينافى هذا ماجاء فى آية[2] ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ * يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ) لأن المراد بالساعة الحصة من الزمان القليل ، فتصدق باليوم . كما أن المراد باليوم مطلق الوقت . ولذلك نكر ، تقليلًا له وتحقيرًا .

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ١١٢و١١٣ ] . (٢) [ ٣٠ / الروم / ٥٥ ] .

قال الشهاب: ليس المراد بحكاية قول من قال (عَشْرًا) أو (يَوْمًا) أو (سَاعَةً) حقيقة اختلافهم فى مدة اللبث، ولا الشك فى تعيينه. بل المراد أنه لسرعة زواله، عبّر عن قلّته بما ذكر. فتفنن فى الحكاية، وأتى فى كل مقام بما يليق به.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٥] (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا)

[١٠٦] (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا)

[١٠٧] (لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا)

«وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ» أى هل تبقى يوم القيامة أو تزول «فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا» أى يزيلها عن مقارّها. فيسيّرها مقذوفة فى الفضاء. وقد تمرّ على الرءوس مرّ السحاب. حتى تتساوى مع سطح الأرض. كما قال «فَيَذَرُهَا» أى فيذر مقارّها ومراكزها. أو الأرض المدلول عليها بقرينة الحال «قَاعًا» أى سهلًا مستوياً «صَفْصَفًا» أى أملس «لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا» أى نتوءا يسيرًا.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٨] (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ، وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا)

«يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ» أى يُجيبون الداعى إلى المحشر، فينقلبون من كل صوب إليه «لَا عِوَجَ لَهُۥ» أى لايعوج له مدعوّ، ولا ينحرف عنه. بل يستوون إليه، متبعين لصوته، سائرين بسيره.

فى شروح (الكشاف): هذا كما يقال (لا عصيان له) أى لا يعصى. و (لا ظلم له) أى لايظلم. وضمير (له) للداعى. وقيل: للمصدر. أى لاعوج لذلك الاتباع «وَخَشَعَتِ

« الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ » أى انخفضت لهيبته ولهـول الفزع « فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » أى صوتاً خفيًّا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] ( يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا )

« يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا » أى قبل قوله . والمعنى : يومئذ لا يستطيع أحد أن يشفع لأحد ، إلا إذا أذن الله له ، ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب .

قال بعض المحققين : وإنما يكون الكلام ضرباً من التكريم ، لمن يأذن الله له به ، يختص به من يشاء . ولا أثر له فيما أراد الله البتة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٠] ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا )

« يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا » أى بمعلوماته ، أو بذاته العلية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] ( وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا )

« وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ » أى ذلت وخضعت خضوع العناة ، أى الأسارى . لأنها فى أسر مملكته وذلّ قهره وقدرته . لا تحيا ولا تقوم إلا به .

ولما كانت الوجوه يومئذ ، منها الظالمة لنفسها ومنها الصالحة ، أشار إلى ما يجزى به الكل ، بقوله سبحانه « وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » أى خسر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] ( وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا )

« وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا » أى نقص ثواب « وَلَا هَضْمًا » أى ولا كسرًا منه ، بعدم توفيته .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٣] ( وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا )

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ » أى بعبارات شتى ، تصريحًا وتلويحًا ، وضروب أمثال ، وإقامة براهين « لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى الكفر والمعاصى بالفعل « أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا » أى اتعاظًا واعتبارًا ، يؤول بهم إلى التقوى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] ( فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ، وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا )

« فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ » أى تناهى فى العلوّ والعظمة ، بحيث لا يقدر قدره ، ولا يغدر أمره فى ملكه الذى يعلو كل شىء ، ويصرفه بمقتضى إرادته وقدرته . وفى عدله الذى يوفى كل أحد حقه بموجب حكمته « وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ » أى: بل أنصت. فإذا فرغ المَلَك من قراءته فاقرأه بعده . وقد كان رسول الله ﷺ إذا لقّنه جبريل الوحىَ، يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة ، لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ. فأرشد إلى أن لا يساوقه فى قراءته ، وأن يتأنّى عليه ريثما يسمعه ويفهمه . ثم ليقبل عليه

بالحفظ بعد ذلك. ونحوه قوله تعالى ( لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ) ثم أمره تعالى باستفاضة العلم واستزادته منه بقوله « وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » أى سله زيادة العلم. فإن مدده غير متناهٍ .

وهذا ـ كما قال الزمخشرىّ ـ متضمن للتواضع لله تعالى والشكر له ، عندما علم من ترتيب التعلم . أى علمتنى يا رب لطيفة فى باب التعلم ، وأدباً جميلًا ما كان عندى، فزدنى علماً إلى علم. فإن لك فى كل شىء حكمة وعلماً . قيل : ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة فى شىء إلا فى العلم .

ثم أشار تعالى إلى أخذه العهد على بنى آدم ، من اتباعهم كل هدى يأتيهم منه سبحانه ، وترتب الفوز عليه . وإلى أن الإعراض عنه من وسوسة الشيطان، العدوّ لهم ولأبيهم قبلهم. وترتب الشقاء عليه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١٥] ( وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا )

« وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ » أى من قبل هـذا الزمان ، أن لا يقرب من الشجرة « فَنَسِىَ » أى العهد « وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا » أى تصميما فى حفظه . إذ لو كان كذلك ، لما أزلّه الشيطان ولما استطاع أن يغرّه . كما بيّنه الله تعالى بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ )

[١١٧] ( فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ )

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ

(١) [ ٧٥ / القيامة / ١٦ـ١٩ ] .

إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ » أى بالابتلاء . وإسناد الشقاء إليه خاصة ، لأصالته فى الأمور ، واستلزام شقائه بشقائها . فاختصر الكلام لذلك ، مع المحافظة على الفاصلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] ( إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ )

[١١٩] ( وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ )

« إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » أى لا تتصوّن من حرّ الشمس .

قال أبو السعود: هذا تعليل لما يُوجبه النهى . فإن اجتماع أسباب الراحة فيها، مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادئ البقاء فيها . والجدِّ فى الانتهاء عما يؤدى إلى الخروج عنها . والعدولُ عن التصريح بأن له عليه السلام فيها تنعماً بفنون النعم .من المآكل والمشارب، وتمتعاً بأصناف الملابس البهيّة والمساكن المرضية ، مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ، ما لايخفى . إلى ما ذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو ، لتذكير تلك الأمور المنكرة والتنبيه على مافيهامن أنواع الشقوة التى حذره عنها، ليبالغ فى التحامى عن السبب المؤدى إليها . انتهى .

لطيفة :

قال الناصر : فى الآية سر بديع من البلاغة ، يسمى قطع النظير عن النظير . وذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع ، والضحو عن الكسوة ، مع ما بينهما من التناسب . والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها :ولو قرن كلًّا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة .

وقد رمق أهل البلاغة سماء هذا المعنى قديماً وحديثاً ، فقال الكندىّ الأول[1] :

كَأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ولم أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ

ولم أسبأ الزِّقَّ الروىّ ولم أَقُلْ لخيلىَ : كُرِّى كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

فقطع ركوب الجواد عن قوله ( لخيلى كرى كرة ) وقطع تبطن الكاعب عن ترشف الكاس ، مع التناسب . وغرضه أن يعدّد ملاذّه ومفاخره ويكثرها .

على أن فى هذه الآية سرًّا لذلك ، زائداً على ما ذكر ، وهو قصد تناسب الفواصل . ولو قرن الظمأ بالجوع فقيل: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تظمأ ، لانتثر سلك رؤوس الآى . وأحسنْ به منتظماً . انتهى . وهذا السرّ الذى سمّاه (قطع النظير عن النظير) يسمى بالوصل الخفىّ . ومما قيل فى وجه القطع : أن فيه التنبيه على أن الأولين ، أعنى الشبع والكسوة أصلان . وأن الأخيرين متممان . فالامتنان على هذا أظهر . ولذا فرّق بين القرينتين . فقيل ( إِنَّ لَكَ ) و ( أَنَّكَ ) وأيضاً روعى مناسبة الشبع والكسوة . لأن الأول يكسو العظام لحما . وأما الظمأ والضحى فمن وادٍ واحد . وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم . ولو قرن كل بما يشاكله ، لتوهم المقرونان نعمة واحدة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] ( فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَانُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ )

[١٢١] ( فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ )

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ » أى من أكل

(١) البيتان السابع والثلاثون والثامن والثلاثون من قصيدة امرئ القيس التى مطلعها :

أَلَا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالِى وهل يَعِمَنْ من كان فى العُصُرِ الخالِى؟

منها خلد ولم يمت « وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا » أى يلزقان « مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ » أى فصل لها هذا الخزى ، بدل عزّ الملك المخلد. وهذه الأوراق الفانية، بدل نفائس الملابس الخالدة « وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ » أى بارتكاب النهى ، وترك العزم فى حفظ العهد « فَغَوَىٰ » أى عن المأمور به . حيث اغتر بقول العدوّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] ( ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ )

[١٢٣] ( قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ )

« ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ » أى اصطفاه ووفقه للإنابة « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ » أى بعد قبول توبته « اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » أى انزلا من الجنة إلى الأرض « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ » أى متعادين .

قال المهايمىّ : فالمرأة عدوّة الزوج ، فى إلجائه إلى تحصيل الحرام . والزوج عدوّها فى إنفاقه عليها . وإبليس يوقع الفتنة بينهما ، ويدعوهما إلى أنواع المفاسد التى لا ترتفع إلا باتباع الأمر السماوىّ . « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى » أى من كتاب ورسول . « فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ » أى لا فى الدنيا ولا الآخرة . قال أبوالسعود : ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله ( هُدَايَ ) مع الإضافة إلى ضميره تعالى ، لتشريفه والمبالغة فى إيجاب اتباعه . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] ( وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ )

[١٢٥] ( قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا )

[١٢٦] ( قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ، وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ )

[١٢٧] ( وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ، وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ )

« وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ* وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ » اعلم أنه لما أخبر سبحانه عن حال من اتبع هداه فى معاشه ومعاده ، أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه ، من شقائه فى الدنيا والآخرة . وهذا الشقاء بقسميه ، هو نوع من أفانين العذاب اللاحقة لمن تولى عن هدى الله الذى بعث به خاتم أنبيائه ، ولم يقبله ولم يستجب له ، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمرَ ربه . وفى الآية مسائل :

الأولى ـ قال الرازىّ فى قوله تعالى ( عَن ذِكْرِى ) : الذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى . ويحتمل أن يراد به الأدلة . وقال ابن القيّم فى ( مفتاح دار السعادة ) : أى عن الذكر الذى أنزلته . و (الذكر) هنا مصدر مضاف إلى الفاعل . كـ (قيامى وقراءتى ) لا إلى المفعول . وليس المعنى : ومن أعرض عن أن يذكرنى . بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر . وأحسن من هذا الوجه أن يقال : الذكر هنا مضاف إضافة الأسماء ، لا إضافة

المصادر إلى معمولاتها . والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه، فإن القرآن يسمى ذكراً. قال تعالى[١] ( وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ) وقال تعالى[٢] ( ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ) . وقال تعالى[٣] ( وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ) . وقال تعالى[٤] ( إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ) . وقال تعالى[٥] ( إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ ) ، وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله . ونظيره في إضافة اسم الفاعل[٦] ( غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ) فإن هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد، وإنما قصد الوصف الثابت اللازم. ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف ، وهو اسم الله تعـالى في قوله تعالى[٧] ( تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ ) الآية .

الثانية ـ قرئ ( ضَنكًا ) بالتنوين على أنه مصدر وصف به ، ولذا لم يؤنث لاستوائه في القبيلين . كما قال ابن مالك :

وَنَعَتُوا بمصدرٍ كثيرَا ... فالتزَمُوا الإفرادَ والتذكيرَا

وفي القاموس : الضنك الضيق في كل شيء ، للذكر والأنثى . يقال : ضَنُكَ ككرم، ضنكا وضناكة وضنوكة ، ضاق . وقال السمين : ( ضنكا ) صفة معيشة . وأصله المصدر فلذلك لم يؤنث . ويقع للمفرد والمثنى والمجموع بلفظ واحد . وقرأ الجمهور ( ضنكا ) بالتنوين وصلًا ، وإبداله ألفاً وقفاً ، كسائر المعربات . وقرأت فرقة ( ضنكى ) بألف كسكرى . وفي هذه الألف احتمالان : فإما أن تكون بدلًا من التنوين، وإنما أجرى الوصل مجرى الوقف ، وإما أن تكون ألف التأنيث بني المصدر على ( فعلى ) نحو دعوى .

---

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٥٠ ] . (٢) [ ٣ / آل عمران / ٥٨ ] .
(٣) [ ٦٨ / القلم / ٥٢ ] . (٤) [ ٤١ / فصلت / ٤١ ] .
(٥) [ ٣٦ / يس / ١١ ] . (٦) [ ٤٠ / غافر / ٣ ] . (٧) [ ٤٠ / غافر / ٢و٣ ] .

الثالثة ـ ذكروا فى هذه المعيشة الضنك التى للكافر أقوالًا : إنها فى الدنيا أو فى القبر أو فى الآخرة أو فى الدين . والأظهر الأول لمقابلته بالوعيد الأخروىّ . قال ابن كثير : أى ضنكاً فى الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره . بل صدره ضيّق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء . فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى ، فهو فى قلق وحيرة وشك . فلا يزال فى ريبه يتردد . فهذا من ضنك المعيشة . انتهى .

وذلك لأن الاعتقاد بالدين الحق واليقين الصحيح لراحة الضمائر والأنفس ، فوق كل الأهواء واللذات والمآرب . فالضنك المعنىّ بها ، إذن هو الضنك الحيوىّ والقلق الدنيوىّ ، من اضطراب القلب وعدم سكون النفس إلى الاعتقاد الحق والإيمان بالدين القيّم الذى هو دين الإسلام . فكل من لم يؤمن به فهو فى ضيق صدر وهموم ومحابس ، لا يجد منها مخارج إلا به ولا يرتاب فى ذلك إلا من كابر حسه وناقض وجدانه . فإن دين الإسلام هو دين الفطرة . دين اليسر . دين العقل . دين النور الذى تنشرح به الصدور وتطمئن به القلوب وتشفى به الأنفس من أدوائها ، وتهتدى به من ضلالها وحيرتها ، وتستنير به من ظلماتها . ولذلك سمى هدًى ونورًا وشفاء ورحمةً . ألق نظرك على الأديان كلها ، وقابل بينها وبينه ، لتدرك ذلك .

هذه اليهودية ، يرى فى اشتراعها من الآصار والأغلال والتكاليف الشاقة فى المعيشة الحيوية ما لا يطاق . قيود فى المأكل والمشرب . وحجر فى المنكح والمبيت والمعاشرة . وضغط على الأنفس بتقسيمها إلى طاهرين يحضرون الاحتفالات ، ونجسين مبعدين لا يلمسون ولا يُلمسون . دع عنك خرافات الاعتقادات والافتراء بالأهواء فى التشريعات وتشعبها فى الأهواء إلى شعب تتباين فى العبادات .

وهذه النصرانية ، الذى أساسها تعديل الشرعة الموسوية قام رهبانها بعد رفع المسيح ،

ومضى عصر الحواريين . فأطلقوا لأتباعهم كل قيد فى اليهودية . وأمروهم بنبذ أحكام التوراة نكاية لليهود . وأخذوا يشرعون للناس مالا ينطبق على أصل التوراة ولا بعثة عيسى . فإنه عليه السلام قال ( ما جئت لأهدم الناموس ـ التوراة ـ بل لأتممه ) . فترى ما أحدث من طقوس الكنيسة وتعاليمها ، اعتقادا وعبادة وسلطة وسيطرة جائرة على العقل والفكر ، وربط الأمور بأيدى الكهنة حلًّا وإبراماً ، تبعاً لرغائب الأنفس والشهوات ، مما يتضجر منه كل مسيحى ذاق جوهر الدين المسيحى حقًّا . إذ جوهره مع ابتداعهم على طرفى نقيض، فأنَّى لا يضيق ذرعه ولا تضنك معيشته ! لذلك لما استقر سلطان الإسلام بالأندلس ، واحتك النصارى بالمسلمين فى الحروب الصليبية ، واستمدوا من معارف الإسلام وعلومه ماقلد جيدهم منا لا تنكر ، أخذوا يقاومون الكنيسة فى حظرها على المعارف والفنون، ومعاداتها للعلوم . وجرى بإغراء الكهنة ، من الدماء المسفوكة ما اسودت به صحف التاريخ . ثم كان الفوز لدعاة الإصلاح . وتفرقوا أحزابا . ولا يزالون يتقربون إلى الإسلام ، بنبذهم سخائف ماورثوه . ولذا تراهم فى عيشة ضنك يسعون لأرق مما هم عليه ، علما بأن الدخائل والبدع فى دينهم ، أفسدت عليهم ما أفسدت . ولن يتسنى لهم الرقى إلا بالرجوع إلى دين الفطرة . وهم يسعون إليه ، وإن كانوا لا يشعرون ، أو يشعرون ويتجاهلون . هذه رشحات من المعيشة الضنك لأمتين عظيمتين ، وهما تنتميان إلى كتابين منزلين .. فما ظنك بالمجوس والوثنيين وفرقهم التى لا تحصى . ولا يزال عقلاؤهم يطلبون التملص منها ، لكثرة خرافاتها وضررها ، نفساً ومالاً وعرضاً . فأهلها فى شقاء وعذاب لا يشاكله عذاب . ومن نجا من ويلاتها بالإسلام ، لا يعد ولا يحصى . وقس على هؤلاء ، الطائفة المسماة بالماديين . وهم الدهريون والطبيعيون. فإنهم بلا ريب أضيق صدراً وأضنك معيشة وأشد اضطراباً وأعظم فرقة فلا يمكن أن يوجد اثنان على رأى واحد . بل يتصور كل منهم إلهه كما يهوى وكما تخيِّلُهُ له رغائبه وشهواته . قال بعضهم: هؤلاء الذين يحصرون دينهم فى أن يعرف الإنسان الله ، ويكون مستقيما فى أعماله، إذا سئلوا:

ما هو الدين الطبيعيّ الذى تعترفون به ؟ فيجيبون إنما هو الذى يرشد إليه العقل عريًّا عن الوحى . فيقال لهم : العقل ، من حيث هو ، ضعيف متغيّر قاصر . يرى اليوم صوباً ما يراه فى الغد خطأً . ويحكم اليوم على أمر أنه حلال مباح ، ويرى غدًا أنه حرام لا يجوز إتيانه . تحمله أغراضه على استحلال ما يلذّ له وتجعله مستنفرًا مما يضادّ أهواءه ، فكيف يكون صاحبه مستقيما فى أعماله ؟ وما هى القاعدة المطردة الثابتة للاستقامة عند هؤلاء ؟ وكلٌّ يرى نفسه ويخيّل له أنه مستقيم !! فالصينىّ مثلا يرى نفسه مستقيما ولو باع أو قتل أولاده . والهندىّ يرى هذه الاستقامة فى نفسه ، ولو أحرق المرأة على جثة رجلها . والوثنىّ يرى نفسه مستقيما ، ولو ارتكب الفحشاء تكرمة للزهرة .

هذا ، وإن أكبر الفلاسفة ضلّوا فى موادّ ما يشرعون . ولم يهتدوا لجادّة الاستقامة الحقة . فأنّى يمكن لعامة الناس أن يكون لكل منهم دين طبيعىّ يقلبه كيف شاء ، ويجعله كشىء مرن ، يمده إلى ما طاب له ، ويقصره عن كل ما عافه . فيختلف هذا الدين باختلاف العقول والأهواء فيهم . وكيف نسمى شريعة ثابتة عامة ، ما كان وقفاً على إرادة كل فرد وأهوائه ؟ وإذا سلمنا ، مجاراة ، أنه يوجد من كان ميّالا طبعاً إلى الاستقامة والعدل والعفة ، فيحمله طبعه على ذلك ، فماذا نقول فيمن كان بالطبع محبًّا للانتقام والاعتداء والشهوات . لاسيما والعقل ضعيف والنفس أمارة بالسوء . فأنّى يكون العقل وحده وازعاً عن ارتكاب المعاصى والجرائم . فما قضى سبحانه بشريعته لمخلوقاته رحمة منه بهم ، إلا لضعفهم وميلهم إلى الشر . وضعف الإنسان وانحرافه يقضى بإلزامه شريعة يخضع لها . فهى ضرورية له ضرورة نظام الأجرام الفلكية لها . وملازمة له ملازمة النطق والإدراك والحرية ، ولزوم الامتداد والثقل والجذب والدفع للأجرام الجامدة . وأول بينة على ملازمة الشريعة طبعَ الإنسان ، ما يجده فى نفسه ووجدانه من انغراسها فيه انغراساً نظريًّا . حتى لا يمكنه أن يجرّد نفسه . مثلا ، كيف يمكن للإنسان ، ولو مهما تعامى فى الشر ، أن يجرّد نفسه عن تصور

أنه خاضع لشريعة تنهاه عن القتل واختلاس مال غيره والاعتداء عليه بأىّ نوع كان ؟ فالشريعة مكتوبة على قلوبنا فى ألواح لحمية . ومن بحث عن عموم سكان البسطة ، وجد إجماع القبائل والشعوب قاطبة على شرائع ، وإن اختلفت فى بعض موادها . والحرية التى منحت للإنسان إنما قيدت محاسنها بالشرائع والخضوع لها . وإلا فهى دمار لنظام العالم ، وجائحة للأدب ، وآفة لما غرس البارئ فى عقول الناس أجمعين ، من عهد آدم إلى يومنا هذا . وذلك لاستلزامها إفساد الطبع الإنسانىّ ، والإجحاف بالشرائع الأدبية . لأن الإنسان متى علم أن ليس له إله يثيب على الخير ويعاقب على الشر ، أطلق لنفسه عنان الفساد ، واطّرح العذار فى مضمار الشهوات وإحراز الرغائب ، قضاء لما يحسبه من سعادته ، واعتقاد أن نفسه ليست خالدة . وليس لسعادته موضوع خارج عن هذه العاجلة . ولاستلزامها أيضاً هدم الاجتماع الإنسانىّ والذهاب بشأفته . إذ لا ترعى بعد الله ذمة بين الملأ ، ولا حرمة للسنن والشرائع ، ولا برّ بالملوك ، ولا عدل بالرعية ، ولا محبة ولا صدق ولا وفاء ولا نحو ذلك مما هو ضرورىّ بالذات لقيام الألفة البشريه ونظام العمران .

وبالجملة ، فلا يظن أحد أن العالم يدوم أو يبقى فيه شىء من النظام أو الهيئة الاجتماعية ، إذا لم يكن الناس مقيّدين بشريعة إلهية ، تصدّ الفاجر عن الفجور . فكما أن الهواء ضرورىّ للحياة الطبيعية ، فكذا الشريعة ضرورية للحياة الأدبية . فلا حياة للموجودات الحية دون هواء ، فكذا لا انتظام ولا هيئة فى العالم دون الشريعة . انتهى .

وقال إمام مدقق ، فى بحث تصحيح الاعتقاد وضرورته لطمأنينة النفس وسعادتها ، ما مثاله : إنا نرى أمام أعيننا بعضاً من الناس قد رزقوا صحة عظيمة وثروة جسيمة وتهذبوا بأنواع العلوم والمعارف ، ولكنهم كثيرو الضجر شديدو الحيرة . لا يكادون يشعرون بالراحة ولا يلتذون بملذة . كأن لهم فى لذة ألماً ، وبإزاء كل فرح ترحاً ، يحسّون بكآبة قد رانت على صدورهم . فلا يعلمون سببها ولا يعرفون موجبها . كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم

عنهم ، بكأس من الرحيق . فلذلك تراهم شديدى الكلف به كثيرى التحرق لفقدانه ، لأنه دواؤهم الوحيد . ما سر هذا الأرق والضجر ، مع هذه الصحة الجسمية وتلك الثروة المالية ، وهما الأمران اللذان عليهما ، كما يزعمون ، مدار السعادة الإنسانية ؟ ما هذه الحيرة الوجدانية والوحشة الضميرية ، مع تهذيبهم بأنواع العلم ، وهو كما يزعمون ، الشافى للناس من نزغات الوسواس ؟

أما يدلنا هذا الضجر السرىّ على أن النفس تائقة لأمر ما ، إن غاب على الإنسان علمه ، فقد دله عليه أثره . وإن ذلك الأمر ليس هو صحة البدن ولا وفرة المال ولا كثرة البنين ، ولا سكنى القصور ، ولا أكل الصنوف ، ولا سماع العيدان ، ولا مغازلة الغيد . بل هو أمر آخر لا تعد هذه الملاذ بالنسبة له إلا هباءً ، ولا الأكوان بجانبه إلا فناء . . ماهو هذا الأمر السامى الذى لو حصلت عليه النفس اطمأنت وسكنت ، وهامت به وسكرت ، ورضيت به وقنعت . هو لا شك صحة المعتقد ، وإليك الدليل :

ليست النفس من طبيعة هذه الأجسام الصماء . ولا من طينة هذه المادة العمياء ، حتى تأنس إلى شىء من أشياء هذه الأرض الحقيرة ، أو تهتم بملاذها مهما كانت كبيرة . بل هى من طبيعة نورانية محضة . فلا تأنس إلا لنور يجلى عنها ظلمات الأشياء الأرضية الكثيفة ، لتشرف على حضرة القدس المنيفة ، وتطل على حظائرها الشريفة . النفس أجلّ من أن تقنع بالمشتهيات الجسمانية ، وأكبر من أن ترضى بملاذها المموهة الفانية . فمهما غالط الإنسان نفسه ، بجمع المال ورفاهة الحال ، ليرتاح سره ويسكن اضطرابه ، فإن النفس لا تفتأ تقيم عليه الحجة بعد الحجة ، ليهتدى إلى وَضَح المحجة . فإن تبصر فى أمره ، واكتفه حقيقة سره ، وأنال نفسه بغيتها من إبلاغها نورها المرجوّ لها ، سكن فؤاده وآب إليه رشاده . ولو كان جسمه بين القنا والقنابل . وحاله من الفقر فى أخس المنازل . فما هو السبيل إلى إبلاغ هذه النفس الهائمة أمنيتها ، وإمتاعها بطلبتها ، من صحة العقيدة ؟ السبيل لذلك هو العقل

السليم . العقل فى النوع الإنسانىّ خصيصة من أجلّ خصائصه ، ومنحة من أفضل منح الله عليه ، لو استعمل فيما وضع له ، واعتنى بصحته واعتداله . بالعقل يسبر الإنسان غور هذا الوجود العظيم ، على ضخامة أجزائه وعظم أبعاده . ويستكنه سير النواميس السائدة عليه ، فيستدل بها على وجود الخالق عز وجل ، وعلى تنزه أفعاله عن العبث ، وصنائعه عن اللهو . كما يستدل به على علمه وتدبيره ورحمته وحكمته ، استدلالاً محسوساً لا يقبل شبهة ولا يداخله ريبة . بالعقل يدرس الإنسان أحوال الجمعيات البشرية . فيرى نواميس رقيّها وهبوطها ، وأسباب رفعتها وضعتها . ويتبصر فى أحوال الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى خلقه هادين مرشدين . فيستدل بالتدقيق فيما جاءوا به ، وفى الآثار التى تركوها ، على معنى النبوّة وضرورتها للبشر . وحكمة الله تعالى فى اختلاف المدارك والإحساسات ، وفى تباين الملل والديانات . بالعقل يميز الإنسان بين أحوال الماضى والحال . فيفرق تبعاً لذلك بين الديانات الخاصة وبين الديانات العامة . ويعثر بتعضيد العلم والبدائه ، على الديانة التى يجب أن تكون خاتمة الأديان كلها ، وباقية بقاء النوع الإنسانىّ ، وهى شريعة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه .

الرابعة ـ رأيت للإمام ابن القيّم ، رحمه الله ، كلاماً على هذه الآية فى كتابيه : (الجواب الكافى) و (مفتاح دار السعادة) فأحببت نقله هنا لفوائده وللعناية بهذه الآية ، فإنها جديرة بذلك . قال فى (الجواب الكافى) فى فصل أبان فيه العقوبات المترتبة على المعاصى : ومنها المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة . قال : وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر . ولا ريب أنه من المعيشة الضنك . والآية تتناول ما هو أعمّ منه ، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى . فإنه سبحانه رتّب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره . فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأوصاف النعم . ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب ، والأمانىّ الباطلة

والعذاب الحاضر مافيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر . فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر . فإنه يفيق صاحبه، ويصحو . وسكر الهوى وحب الدنيا لايصحو صاحبه إلا إذا سكر فى عسكر الأموات . فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى الدنيا وفى البرزخ ويوم المعاد. ولا تقرّ العين ولا يهدأ القلب ولاتطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين. ومن لم تقر عينه بالله، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحاً ، كما قال تعالى[1] ( مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح، الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة. فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين. ونظير هذا قوله تعالى[2] ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ) ونظيرها قوله تعالى[3] ( وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين، فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة . ولانسبة لنعيم البدن إليه، فقد كان بعض من ذاق هذه اللذة يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف . وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٩٧ ] .
(٢) [ ١٦ / النحل / ٣٠ ] .
(٣) [ ١١ / هود / ٣ ] .

طيّب . وقال آخر : إن فى الدنيا جنة، هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة. من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقد[١] أشار النبىّ ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : ( إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال[٢]: ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ) ولا تظن أن قوله تعالى[٣] ( إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ) يختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة . وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة . وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته ؟ وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم ؟ وقد أثنى الله تعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال[٤] (وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) وقال حاكياً عنه أنه قال[٥] ( يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة . فسلم من كل آفة تبعده من الله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره . وسلم من كل إرادة تزاحم مراده . وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ وفى جنة يوم المعاد . انتهى ملخصاً .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨٢ ـ باب حدثنا يوسف بن حماد البصرىّ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٢٠ ـ كتاب الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ، ٥ ـ باب فضل ما بين القبر والمنبر ، حديث ٦٤٨ ، عن عبد الله بن زيد المازنىّ .

(٣) [ ٨٢ / الانفطار / ١٣و١٤ ] . (٤) [ ٣٧ / الصافات / ٨٣و٨٤ ] .

(٥) [ ٢٦ / الشعراء / ٨٨و٨٩ ] .

وقال رحمه الله فى ( مفتاح دار السعادة ) : فَسَّرَ غير واحد من السلف قوله تعالى ( فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ) بعذاب القبر . وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر . ولهذا قال (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ) أى تترك فى العذاب كما تركت العمل بآياتنا. فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار. ونظيره قوله تعالى فى حق آل فرعون[1] ( ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ) فهذا فى البرزخ ( وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ) فهذا فى القيامة الكبرى . ونظيره قوله تعالى ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ، ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ) فقول الملائكة ( ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ) المراد به عذاب البرزخ الذى أوله يوم القبض والموت. ونظيره قوله تعالى[2] ( وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ) فهذه الإذاقة فى البرزخ . وأولها حين الوفاة ، فإنه معطوف على قوله ( يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ) وهو من القول المحذوف لدلالة الكلام عليه كنظائره . وكلاهما واقع وقت الوفاة .

وفى الصحيح[4] ، عن البراء بن عازب فى قوله[5] ( يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ) قال : نزلت فى عذاب القبر . والأحاديث فى عذاب

---

(١) [ ٤٠ / غافر / ٤٦ ] .  (٢) [ ٦ / الأنعام / ٩٣ ] .

(٣) [ ٨ / الأنفال / ٥٠ ] .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ١٤ ـ سورة إبراهيم ، ٢ ـ باب يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، حديث ٧٢٥ .

(٥) [ ١٤ / إبراهيم / ٢٧ ] .

القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذى من اتبعه لا يضل ولا يشقى ، بأن له معيشة ضنكا، وتكفل لمن حفظ عهده أن يحيه حياة طيبة ويجزيه أجره فى الآخرة فقال[1] تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعده علماً وعملاً فى العاجلة بالحياة الطيبة ، وفى الآخرة بأحسن الجزاء . وهذا بعكس من له المعيشة الضنك فى الدنيا والبرزخ، ونسيانه فى العذاب فى الآخرة . وقال سبحانه[2] ( وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه من الشياطين وضلاله به ، إنما كان لسبب إعراضه وعشوّه عن ذكره الذى أنزله على رسوله. فكان عقوبة هذا الإعراض، أن قيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه. وهو يحسب أنه مهتد . حتى إذا وافى ربه يوم القيامة من قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه قال[3] ( يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ) وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحى الذى هو ذكر الله ، فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة .

فإن قيل : فهل لهذا عذر فى ضلاله ، إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى[4] ( وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) ؟ قيل : لا عذر لهذا وأمثاله فى الضلال ، الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول . ولو ظن أنه مهتد ، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعى الهدى . فإذا ضل فإنما أُتِىَ من تفريطه وإعراضه . وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة ، وعجزه عن الوصول إليها ، فذاك له حكم آخر .

والوعيد فى القرآن إنما يتناول الأول . وأما الثانى فإن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة

---

(١) [ ١٦ / النحل / ٩٧ ] . (٢) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٦ و ٣٧ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٨ ] . (٤) [ ٤٣ / الزخرف / ٣٧ ] .

الحجة عليه كما قال تعالى[١] ( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ) وقال تعالى[٢] ( رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ) وقال تعالى فى أهل النار[٣] ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ) وقال تعالى[٤] ( أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ) وهذا كثير فى القرآن .

الخامسة ـ قال ابن القيم : اختلف فى قوله تعالى ( وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ ) هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر ؟ والذين قالوا هو من عمى البصيرة ، إنما حملهم على ذلك قوله تعالى[٥] (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقوله[٦] ( لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ) وقوله[٧] ( يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ) وقوله[٨] ( لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ) ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية فى الآخرة لقوله[٩] وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ) وقوله[١٠] ( يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ) وقوله[١١] ( وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ) .

(١) [ ١٧ / الإسراء / ١٥ ] .
(٢) [ ٤ / النساء / ١٦٥ ] .
(٣) [ ٤٣ / الزخرف / ٧٦ ] .
(٤) [ ٣٩ / الزمر / ٥٦ـ٥٩ ] .
(٥) [ ١٩ / مريم / ٣٨ ] .
(٦) [ ٥٠ / ق / ٢٢ ] .
(٧) [ ٢٥ / الفرقان / ٢٢ ] .
(٨) [ ١٠٢ / التكاثر / ٦و٧ ] .
(٩) [ ٤٢ / الشورى / ٤٥ ] .
(١٠) [ ٥٢ / الطور / ١٣ـ١٥ ] .
(١١) [ ١٨ / الكهف / ٥٣ ] .

والذين رجحوا أنه من عمى البصر ، قالوا : السياق يدل عليه لقوله ( قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ) وهو لم يكن بصيراً فى كفره قط ، بل قد تبين له حينئذ أنه كان فى الدنيا فى عمى عن الحق . فكيف يقول ( وقد كنت بصيراً ) وكيف يجاب بقوله ( كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ) ؟ بل هـذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله . فإنه لما أعرض عن الذكر الذى بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته ، أعمى الله به بصره يوم القيامة ، وتركه فى العذاب ، كما ترك الذكر فى الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره فى الآخرة. وعلى تركه ذكره، تركه فى العذاب. وقال تعالى[1] (وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ) وقد قيل فى هـذه الآية أيضاً : إنهم عمى وبكم وصم عن الهدى. كما قيل فى هذه الآية[2] قوله (وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ) قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون .

ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم ، المضادّ للبصر والسمع والنطق ، قال : هو عمى وصمم وبكم مقيد لا مطلق .فهو عمى عن رؤية مايسرهم وسماعه. وهذا قد روى عن ابن عباس قال : لا يرون شيئاً يسرهم . وقال آخرون : هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة ، يخرجون من الدنيا كذلك . فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك . ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد . وهذا مروىّ عن الحسن .

وقال آخرون : هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها ، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق ، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى[3] ( ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ) فحينئذ ينقطع الرجاء وتبكم عقولهم فَيُبْصَرُون بأجمعهم ، عمياً بكماً صماً ، لا يبصرون

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٩٧] . (٢) [٢٠ / طه / ١٢٤] . (٣) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٨]

ولا يسمعون ولا ينطقون . ولا يسمع فيها بعدها إلا الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل .

والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لاحجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حُجَّةً ، هم عُمْىٌ عنها، بل هم عُمْىٌ عن الهدى كما كانوا فى الدنيا. فإن العبد يموت على ماعاش عليه . ويبعث على ما مات عليه . وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر ، وأنه عمى البصر . وأن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً ، ويقرّ بما كان يجحد فى الدنيا . فليس هو أعمى عن الحق يومئذ .

وفصل الخطاب ؛ أن الحشر هو الضم والجمع . ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة ، لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم[1] ( إنكم محشورون إلىّ حفاة عراة ) وكقوله تعالى[2] ( وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ) وكقوله تعالى[3] ( وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر . فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة . وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار. لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا[4] ( يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ) ثم قال تعالى[5] ( ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ... ) الآية وهذا الحشر الثانى . وعلى هذا فهم مابين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثانى، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثانى يحشرون على وجوههم عميا وبكما وصما . ولكل موقف حال يليق به ، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته. فالقرآن يصدق بعضه بعضاً[6] (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ) . انتهى .

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٨ ـ باب قول الله تعالى : واتخذ الله إبراهيم خليلا ، حديث ١٥٨٥ عن ابن عباس .
(٢) [ ٨١ / التكوير / ٥ ] .
(٣) [ ١٨ / الكهف / ٤٧ ] .
(٤) [ ٣٧ / الصافات / ٢٠و٢١ ] .
(٥) [ ٣٧ / الصافات / ٢٢ ] .
(٦) [ ٤ / النساء / ٨٢ ] .

السادسة ـ قوله تعالى ( وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ) أى لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها . كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك[1] ( فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ) فإن الجزاء من جنس العمل . فالنسيان مجاز عن الترك .

قال ابن كثير : فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه ، والقيام بمقتضاه ، فليس داخلاً فى هذا الوعيد الخاص. وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى. فإنه قد وردت السنة بالنهى الأكيد والوعيد الشديد فى ذلك .

روى الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال[2] ( مامن رجل قرأ القرآن فنسيه ، إلا لقى الله يوم يلقاه ، وهو أجذم ) ؛

السابعة ـ قوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ...) الآية، أى وهكذا نجزى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة . وعذاب الآخرة أشد وأبقى ، من ضنك العيش فى الدنيا . لكونه دائما . ثم أشار تعالى إلى تقرير ماتقدم من لحوق العذاب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] ( أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ )

« أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ » أى لهؤلاء المكذبين « كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ » أى الأمم المكذبة للرسل « يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ » يريد قريشا ، أى يتقلّبون فى بلاد عاد وثمود ولوط ويعاينون آثار هلاكهم ، وأن ليس لهم باقية ولا عين ولا أثر « إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » أى العقول السليمة . كما قال تعالى[3] ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) [ ٧ / الأعراف / ٥١ ] . (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٨٤ من الجزء الخامس ( طبعة الحلبىّ ) . (٣) [ ٢٢ / الحج / ٤٦ ] .

فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ) وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] ( وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى )

« وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى » بيان لحكمة تأخير عذابهم مع إشعار قوله ( أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ . . . ) الآية ، بإهلاكهم مثل هلاك (أولئك) . والكلمة السابقة ، قال القاشانىّ : هو القضاء السابق أن لا يستأصل هذه الأمة بالدمار والعذاب فى الدنيا، لكون نبيّهم نبىّ الرحمة. وقوله سبحانه[1] (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ) .

وقال الزمخشرىّ : الكلمة السابقة هى العدة بتأخير جزائهم إلى الآخرة . يقول : لولا هذه العدة لكان مثل إهلاكنا عاداً وثمود لازماً لهؤلاء الكفرة . و ( اللزام ) إما مصدر ( لازم ) كالخصام ، وصف به مبالغة . أواسم آلة لأنها تبنى عليه كحزام وركاب، واسمُ الآلة يوصف به مبالغة أيضاً، كقولهم : مِسْعَرُ حَرْبٍ، ولِزَازُ خَصْمٍ بمعنى مُلِحّ على خصمه . من ( لزّ ) بمعنى ضيق عليه .

وجوز أبو البقاء فيه كونه جمع ( لازم ) . كقيام جمع قائم .

وقوله تعالى ( وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ) عطف على ( كلمة ) أى ولولا أجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم، وهو يوم القيامة أو يوم بدر ، لما تأخر عذابهم أصلاً .

قال أبو السعود : وفصله عما عطف عليه، للإشعار باستقلال كل منهما، بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآية الكريمة .

---

(١) [ ٨ / الأنفال / ٣٣ ] .

وقد جوز عطفه على المستكن فى ( كان ) العائد إلى الأخذ العاجل، المفهوم من السياق، تنزيلاً للفصل بالخبر منزلة التأكيد . لكان الأخذ العاجل ، وأجل مسمى لازمين لهم . كدأب عاد وثمود وأضرابهم . ولم ينفرد الأجل المسمى دون الأخذ العاجل . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] ( فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ، وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ )

« فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ » أى إذا كان تأخير عذابهم ليس بإهمال بل إمهال ، فاصبر على مايقولون من كلمات الكفر . فالفاء سببية. والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر منهم ، لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة .

وفى التسبيح المأمور به وجهان :

الأول ـ أنه التنزيه . والمعنى : ونزه ربك عن الشرك وسائر ما يضيفون إليه من النقائص ، حامدا له على ما ميزك بالهدى ، معترفاً بأنه المولى للنعم كلها . ومن صيغه المأثورة ( سبحان الله وبحمده ) . وعليه فسرٌ تخصيص هذه الأوقات الإشارة إلى الدوام ، مع أن لبعض الأوقات مزية يفضل بها غيرها .

الثانى ـ أنه الصلاة وهو الأقرب لآية[1] ( وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ) والآيات يفسر بعضها بعضاً . والمعنى: صلّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه، قبل طلوع الشمس، يعنى صلاة الفجر . وقبل غروبها ، يعنى صلاة الظهر والعصر ، لأنهما واقعتان فى النصف الأخير من النهار ، بين زوال الشمس وغروبها ( وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ ) أى من ساعاته ، يعنى المغرب والعشاء . وإنما قدم الوقت فيهما ، لاختصاصهما بمزيد الفضل . وذلك

(١) [ ٢ / البقرة / ٤٥ ] .

لأن أفضل الذكر ما كان بالليل لاجتماع القلب وهدوء الرِّجْلِ والخلوِّ بالرب تعالى . ولأن الليل وقت السكون والراحة ، فإذا صرف إلى العبادة كانت على النفس أشد وأشق ، وللبدن أتعب وأنصب ، فكانت أفضل عند الله وأقرب .

وقوله تعالى ( وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ ) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ، إيذاناً باختصاصهما بمزيد مزية . ومجيئه بلفظ الجمع لأمن الإلباس ، والمرجح مشاكلته لـ ( ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ ) أو أمر بصلاة الظهر . فإنه نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الأخير . وجمعه باعتبار النصفين . أو لأن النهار جنس فيشمل كل نهار . أو أمر بالتطوع فى أجزاء النهار .

وقال الرازىّ : إنما أمر ، عقيب الصبر ، بالتسبيح ، لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة . إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى . قلت: وقد أشير إلى حكمة الأمر بالصبر والتسبيح بقوله تعالى ( لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ) أى رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك ، من رفع ذكرك ، ونقهرك على عدوك وبلوغ أمنيتك من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى[1] ( عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ) وقوله تعالى[2] ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ) .

ثم أشار تعالى إلى أن ما متع به الكفار من الزخارف ، إنما هو فتنة لهم فلا ينبغى الرغبة فيه ، وإن ما أوتيه أجل وأسمى ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] ( وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ )

« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ » أى أصنافاً من الكفرة

(١) [ ١٧ / الإسراء / ٧٩ ] . (٢) [ ٩٣ / الضحى / ٥ ] .

« زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » أى زينتها . منصوب على البدلية من ( أَزْوَٰجًا ) أو بـ ( مَّتَّعْنَا ) على تضمينه معنى : أعطينا وخولنا « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ » أى لنختبرهم فيما متعناهم به من ذلك ونبتليهم . فإن ذلك فانٍ وزائل وغرور وخدع تضمحل .

قال أبو السعود : ( لِنَفْتِنَهُمْ ) متعلق بـ ( مَّتَّعْنَا ) جىء به للتنفير عنه ببيان سوءعاقبته مآلا ، إثر إظهار بهجته حالًا . أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه . أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه « وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ » أى ثوابه الأخروىّ خير فى نفسه مما متعوا به وأدوم ، كقوله تعالى[1] ( ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ) أو المعنى ما أوتيت من النبوة والهدى ، خير مما فتنوا به وأبقى ، لأنه لا مناسبة بين الهدى الذى تتبعه السعادة فى الدارين ، وبين زهرة يتمتع بها مدة ثم تذبل وتفنى . وفى التعبير بـ ( الزهرة ) إشارة لسرعة الاضمحلال ، فإن أجلها قريب . ومن لطائف الآية ماقاله الزمخشرىّ رحمه الله ، ونصه : مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحساناً للمنظور إليه ، وإعجاباً به وتمنياً أن يكون له . كما فعل نظارة قارون حين قالوا[2] ( يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ) حتى واجههم أولو العلم والإيمان[3] بـ ( وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ) .

وفيه : أن النظر غير الممدود معفوّ عنه . وذلك مثل نظر من بَادَهَ الشىء بالنظر ثم غض الطرف . ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع ، وإن من أبصر منها شيئاً أحب أن يمد إليه نظره ويملأ منه عينيه ، قيل : ولا تمدنّ عينيك . أى لا تفعل ما أنت معتاد له وضارٍ به . ولقد شدد العلماء من أهل التقوى فى وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة ، وعُدَد الفسقة فى اللباس والمراكب وغير ذلك ، لأنهم إنما اتخذوا هذه الأشياء لعيون النظارة ،

(١) [ ٢٨ / القصص / ٨٠ ] . (٢) [ ٢٨ / القصص / ٧٩ ] .
(٣) [ ٢٨ / القصص / ٨٠ ] .

فالناظر إليها محصل لغرضهم ، وكالمغرى لهم على اتخاذها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا، لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ، وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ )

« وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ » يعنى ( بأهله ) أهل بيته أو التابعين له . أى مرهم بإقامتها لتجذب قلوبهم إلى خشية الله « وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » أى على أدائها ، لترسخ بالصبر عليها ملكة الثبات على العبادة ، والخشوع والمراقبة ، التى ينتج عنها كل خير . ثم أشار تعالى إلى أن الأمر بها ، إنما هو لفلاح المأمور ومنفعته ، ولا يعود على الآمر بها نفع مّا ، لتعاليه وتنزهه بقوله « لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ » أى لا نسألك مالًا . بل نكلفك عملا ببدنك نؤتيك عليه أجراً عظيماً وثواباً جزيلًا . ومعنى : نحن نرزقك ، أى نحن نعطيك المال ونكسبك ولا نسألكه . قاله ابن جرير[1] .

وقال أبو مسلم : المعنى أنه تعالى إنما يريد منه ومنهم العبادة . ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج . وهو كقوله تعالى[2] : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ) وقال بعض المفسرين : معنى الآية . أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم . ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة ، فإن رزقك مكفىّ من عندنا ، ونحن رازقوك . وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقاً ولا مفهوماً . وفيه حض على القعود عن الكسب ، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعى المأمور به . وقد قال تعالى[3] : فى وصف المتقين ( رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٦ من الجزء السادس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .
(٢) [ ٥١ / الذاريات / ٥٦و٥٧ ] . (٣) [ ٢٤ / النور / ٣٧ ] .

تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ) إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين . ( رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً )[1] .

وقوله تعالى « وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ » أى والعاقبة الحسنة من عمل كل عامل ، لأهل التقوى والخشية من الله ، دون من لا يخاف له عقاباً ولا يرجو له ثواباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] ( وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ، أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ )

« وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ » يعنون ما تعنتوا فى اقتراحه مما تقدم ، فى سورة بنى إسرائيل ، من قوله تعالى[2] ( وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ . . . ) الآية .

وقوله تعالى « أَوَ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ » أى : أو لم يأتهم بيان ما فى الكتب التى قبل هذا الكتاب ، من أنباء الأمم من قبلهم ، التى أهلكناهم لما سألوا الآيات ، فكفروا بها لما أتتهم ، كيف عجلنا لهم العذاب ، وأنزلنا بهم بأسنا بكفرهم بها . يقول : فماذا يؤمنهم إن أتتهم الآية ، أن يكون حالهم حال أولئك . هذا ما قاله ابن جرير[3] .

وذهب غيره إلى أن المعنى : أو لم يأتهم آية هى أم الآيات وأعظمها ، وهى معجزة القرآن المبينة لما فى الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور . مع أن الآتى بها أمىٌّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها . فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه ، وعلى الباطل المحرف فَفَنَّدَهُ .

---

(١) [ ٢ / البقرة / ٢٠١ ] . (٢) [ ١٧ / الإسراء / ٩٠و٩١ ] .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣٧ من الجزء السادس عشر ( طبعة الحلبىّ الثانية ) .

وفيه إشعار بكفاية التنزيل فى الإعجاز والبرهان كما قال تعالى[1] فى سورة العنكبوت (وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ، قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) ولذلك قال أحد حكماء الإسلام. إن الخارق للعادة الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته إلى التصديق برسالة النبىّ ﷺ هو الخارق الذى تواتر خبره ولم ينقطع أثره . وهو الدليل وحده. وماعداه مما ورد فى الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى ، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد فى مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله ، وفضلٌ من التأكيد لمن سلمه من أهله . ذلك الخارق المتواتر المعول عليه فى الاستدلال لتحصيل اليقين ، هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر ، هو أنه جاء على لسان أمىّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا للضال مقوماً للمعوج كافلًا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم ، منقذاً لهم من خسران كانوا فيه . وهلاك كانوا أشرفوا عليه . وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على مالم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء ، أن يعارضوه بشىء من مثله ، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف ، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به ، إلى أن ألجاؤهم إلى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام تمد عالمها بأضوائها ، وتنشر أنوارها فى جوانبها . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم . وطولبوا بأن يأتوا فى نظرهم على آخر ما تنتهى إليه قوتهم ، فإما وجدوا طريقاً لإبطال إعجازه أو كونه لايصلح دليلًا على المدعى، فعليهم أن يأتوا به، قال تعالى[2] (وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ) وقال[3]

(١) [ ٢٩/ العنكبوت/ ٥٠و٥١ ].(٢) [ ٢/ البقرة / ٢٣ ].(٣) [ ٤/ النساء/ ٨٢].

( أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ) وقال غير ذلك ، مما هو مطالبة بمقاومة الحجة بالحجة . ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رَغْمٍ من العقل .

معجزة القرآن جامع من القول والعلم . وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم. فهى معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أحنائها . ونشر ماانطوى فى أثنائها . وله منها حظه الذى لاينتقص . فهى معجزة أعجزت كل طوق أن يأتى بمثلها . ولـكنها دعت كل قدرة أن تتناول ماتشاء منها. أمامعجزة موت حىّ بلاسبب معروف للموت، أو حياة ميت أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهى مما ينقطع عنـده العقل ويجمد لديه الفهم . وإنمـا يأتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غلبهم الوهم ولم تضئ عقولهم بنور العلم . وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للأمم على حسب الاستعدادات.

وقال فاضل آخر : قضت مراحم الله جل شأنه أن يكوّن الأكوان فى الطبيعة على ترتيب محكم ، ينطق بلسان الصمت للمتبصر ، ويظهر بلباس الوضوح للمتفـكر ، ويحبب إليه الانتقال منه إلى غيره بدون أن يشعر بملل ولا سآمة ، ولا يؤوب من استبصاره بندامة، بدون هذا الاعتبار بالعقل ، لا يأتى للنفس أن تصح عقيدتها ، ولا يتأتى لها تبعاً لذلك أن تسكن من اضطرابها . هـذا ، ولا ننـكر أنه قدمضى على النوع الإنسانىّ زمن كان فيه العقل فى دور الطفولية . وكان يكفيه فى الإيمان أن يندهش لأمر خارق للطبيعة ، يعطل من سير نواميسها وقتاً مّا . وكان الله سبحانه وتعـالى يرأف بعباده فيرسل إليهم رسلاً يمتعهم بخصائص تعجز عن اكتناه سرها عقولهم . وتندهش لها ألبابهم ، فيستدلون بهذه المعجزات على صدق الرسول وضرورة اتباعه ، وأما الآن، حيث بلغ العقل أشده، والنوع الإنسانىّ رشده، فلا تجدى فيه معجزة ، ولا تنفع فيه غريبـة . لأن الشـكوك قد كثرت مع كثرة الموادّ العلمية. فإن حدث حادث من هذا القبيل رموا فاعله بالتدليس أوّلا، ثم إذا ظهر لهم براءته منه أخذوا يعللون معجزته بكل أنواع التعليلات . هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإن طائفة الاسبيريت

الروحيين فى أوربا ، تعمل الآن من الأعمال المدهشة الخارقة لنواميس الطبيعة ، ما لو رآه الجهلاء لظنوا به أنه من أكبر المعجزات، مع أن القوم لا يدّعون النبوة، ولا يزعمون الرسالة. نعم ، لا ننكر أن أعمال هذه الطائفة ليست من نوع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولكنه بدون شك ، يقلل من أهميتها فى نظر الذين يقفون مع ظواهر الأشياء .

ومما يدل على أن هذه القرون الأخيرة لا تروج فيها مسائل المعجزات ، تكذيب علماء أوربا بكل المعجزات السابقة . وهو ، وإن كان تهورا منهم ، إلا أنهم مصيبون فى قولهم إننا فى زمان لا يجدى فيه للاعتقاد إلا النور العقلىّ والدليل العلمىّ . لهذه الأسباب جاءت الشريعة الإسلامية تدعو إلى السبيل الحق، ببدائه العقل، وقواعد العلم . صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات . لعلم الله سبحانه وتعالى بأنه سيأتى زمان تؤثر فيه المقررات العلمية على القوة العقلية ، ما لا تؤثر عليها الخوارق للنواميس الطبيعية . انتهى .

ثم أشار تعالى إلى منته فى إرسال الرسول صلوات الله عليه ، والإعذار ببعثته ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٤] ( وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ )

[١٣٥] ( قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ، فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ )

« وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ » أى من قبل إتيان البينة ، أو محمد عليه السلام « لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ» أى بالعذاب الدنيوىّ «وَنَخْزَىٰ» أى بالعذاب الأخروىّ. أى ولكنا لم نهلكهم قبل إتيانها.

فانقطعت معذرتهم . فعند ذلك ، قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء « قُلْ » أى لأولئك الكفرة المتمردين « كُلٌّ » أى منا ومنكم « مُتَرَبِّصٌ » أى منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم « فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ » أى عن قرب « مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ » أى المستقيم « وَمَنِ اهْتَدَى » أى من الزيغ والضلالة . أى هل هو النبى وأتباعه ، أم هم وأتباعهم .

وقد حقّق الله وعده . ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده . فله الحمد فى الأولى والآخرة .